كتاب

الثمرات

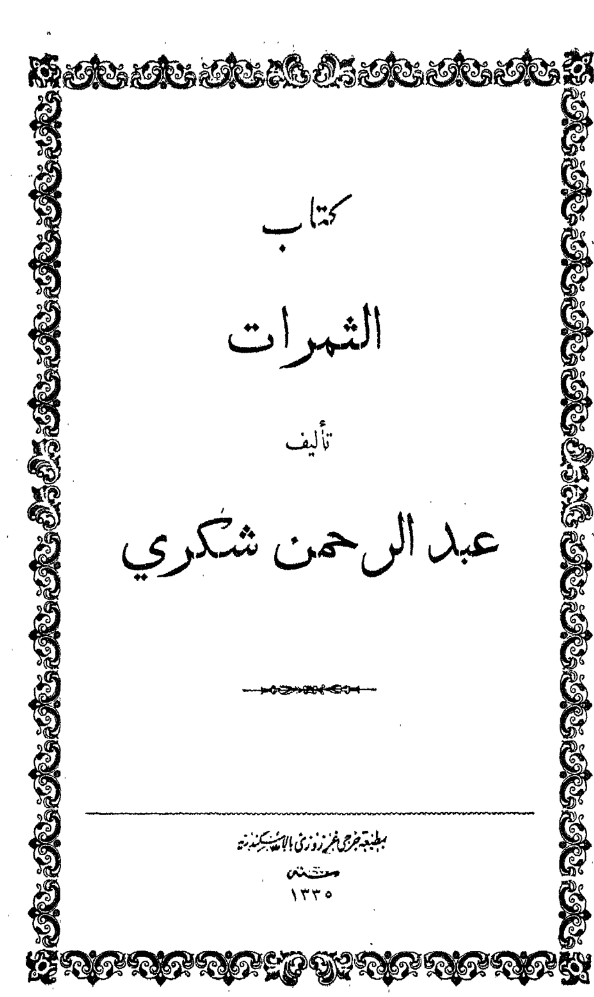
تأليف

عبد الرحمن شكري

بمطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٦ مسيحية و ١٣٣٥ هجرية



كتاب

الثمرات

تأليف

عبد الرحمن شكري

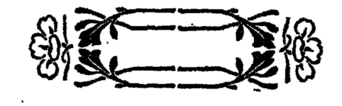
بمطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٣٣٥

كلمة

هذه ثمرات افانين من ثمرات الفكر والعواطف بعضها قديم وبعضها جديد وليست الحياة الا ثمرات الفكر والعواطف جديدها وقديمها



الفهرس

صفحة	
٥	احلام الشباب
١٠	الذكر والاماني
٣	وقع الاقدام
١٧	الضحك والبكاء
٩	نظر الشاعر الى الطبيعة
٢٤	رسول الامل
٢٧	الايمان بالحياة
٣٢	الذوق
٣٦	رداء ولا رداء
٣٩	تقديس النجاح
٤٣	الحياة واليأس
٤٨	اغلاط الحقائق
٥٦	المثل الاعلى
٦٠	الصيف
٦٤	جنة الادباء
٦٩	قتلى المظاهر
٧٢	عصور الانتقال
٧٩	على ظهر البحر

﴿ اصلاح الخطأ ﴾

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
حشا	حث	٩	١٣
تركتيني	تركتني	٨	٢٠
قلوبا	قلوبنا	١٢	٣
انا	انـا	١٢	٣
يراق	تراق	١٧	٤
ولم	ألم	١٨	٥
معنى العبث	بعبثها	٢٢	٩
زوقه	ذوقه	٣٤	١٧
حياء	حياة	٣٦	١٦
علماة	علماء	٣٦	١٧
يهمها	تهمها	٤٣	٧
فيعترض الانسان	يعترضه	٤٦	٨
قربا	قريباً	٤٦	١١
احل	اجل	٥٦	٥
ايائنا	آبائنا	٥١	٢٠
عن	من	٥٩	٨

احلام الشباب

احذر ان يكون املك في صلاح الحب كبيراً فانه بقدر املك من صلاحه يكون يأسك من فساده وبقدر يأسك من فساده يكون جهلك جمال الحياة فاذا اردت ان لا يغيب عنك جمال الحياة فاجعل اكثر حبك حناناً وعبادة للجمال واحذر ان تجعله غاية فليس الحب آفة ولكن الاغترار به آفة الشباب

وقصة الحب الخائب تمثل زوال آمال الشباب فان الشباب باب يطل على الابد اذا قربه صاحب النفس الظامئة الى الكمال شم منه ريح الخلد فاصابه داء الابد فكان من مرضي الخلود وان ابلال المرء من ذلك الداء اشد على النفس منه فاذا اصيب امرؤ بذلك الداء ثم ابرأته التجارب منه كان برؤه اوجع في النفس منه لان الحب يترك مكانه يأساً لا يمحوه شيء غير تعاقب الايام وقد لا يمحوه تعاقبها

كل انسان اذا بلغ الشباب وبلغ من التهذيب مبلغاً زعم ان الحب فرض على كل مخلوق وان فيه برأ لما في هذا الوجود من الشر ولا يزال يلتمس صلاح الكون بصلاح الحب حتى اذا اكلت التجارب قلبه ونهشت لبه عاد ذلك الحب يأساً بعد ان كان املاً فيفيق من حلم الشباب وكأنه ذلك الرجل الذي رأى انه يعانق خيال حبيبته فلما عانقه ذهب عن ذلك الخيال بهاءه ورأى المسكين انه يعانق رمة بالية

ان عبادة الجمال تمنح المرء سعة في الذهن وتطلقه من رق التعصب لجانب من جوانب الحق فانها تريه ان للحق جوانب كثيرة وان اكثر الناس لا يرون الا جانباً من جوانبه ولكن واسع الروح الذي امتلأ روحه من حب الجمال واجلاله وامتلأ ذهنه من صور الجمال والملاحة لا يقيد رأيه بجانب واحد من جوانب الحق

ان عبادة الجمال تطلق المرء من عقال التحيز والغباء وضيق الذهن وتفيض على روحه نوراً يضيء له اسرار الحياة وتفتح ابواب القلب لكل طارق من حسنات الطبيعة

ورب امة كان افرادها يغذون ابصارهم برؤية الجمال ويغذون قلوبهم بعبادته فكان للجمال بينهم سلطان على التناسل فكانت تولد لهم ابناء حسان وقد اذكرني هذا ما تفعله نساء الفلاحين في مصر فانهن يضعن في غرفة الحبلى صوراً جميلة مثل صورة السفيرة عزيزة او صورة خضرة الشريفة ويزعمن ان الحبلى اذا اكثرت من النظر اليها اتى الوليد حسناً ويقلن ان نظر الحبلى الى الصور الجميلة يكسب الجنين شيئاً من الحسن .

رأيت مرة في الحلم اني احببت فتاة روحها واسعة كبيرة فهي كالغابة سمت فروعها واشجارها حتى اضللنا اعاليها في اعماق السماء وان من النفوس نفوساً غير محدودة بحدود الفكر نفوساً لا نهاية لها نفوساً يضل المرء اعاليها في اعماق الابد هذه النفوس مثل نفس من احببتها ثم صحوت من النوم فلم ارَ حولي غير نفوس احقر من البق

رأيتها مرة في الحلم وفي يديها نسر ميت تقص جناحيه فسألتها ما هذا النسر قالت هو قلبك اقص جناحيه اللذين يسعدانه على الطيران لقد طالما سما هذا القلب الى آمال في الحياة بعيدة كالنجوم فما زال يعلو وجناحاه يسعدانه على الطموح حتى لمس بهما حاجب الشمس فلفحته النار فاحترق فهوى الى الارض صريعاً . ايها النسر قد كان لك عن تلك الامال مغنى ومنأى لقد كنت في وكرك آمناً لفحات الحب فالاحت لك الشمس بحاجب مضيء فغرك منها ما غر اليهودي من ديناره فاصابك مصرع اهل الغرور

رأيتها مرة وفي يديها زهرة ذابلة تقطف اوراقها فقلت لها ما هذه الزهرة قالت هي آمالك في الحياة قد خانها الحب كما يخون الخريف الزهور ضننت بها على الشتاء فقطفت اوراقها واحدة فواحدة تلك اوراق الربيع الفائت

ايتها الزهرة قد كانت لك في الربيع ايام كنا نستضيء فيها برونق منك غض فالان اذ ذهب الربيع لا معتب على الدهر فيك هذه يد اليك حبيبة ضنت بك على غير رفيق فنثرت اوراقك وفاء لذلك الزمن الفائت والعهد القديم . رأيتها مرة وفي يديها عقدة تحاول حلها فقلت ما هذه العقدة قالت هي ايمانك بالحياة عقدة لم تعقدها العزيمة فلا غرو اذا حلها اليأس

ان بين الحب واليأس صلة مثل الصلة التي بين الحب والامل فليس الامل اقرب من اليأس اليه. الحب مثل الخمر فالخمر حلوة مرة وكذلك

الحب أليس للخمر نشوة وللحب نشوة أليس للنشوان صحو وللمحب صحو فاذا افاق المخمور من خماره احس ألمًا يذكره بسكرة امس واذا افاق المحب من خمار الحب بقيت في قلبه حسرة تذكره بالعهد الفائت والحب الذي مضي الحب حيوان نصفه الاعلى حسناء كاعب ونصفه الاسفل ثعبان .

رأيتها مرة في النوم كأنها نجمة الفجر تطل من سماء اخلامي او كأنها قبلة لذيذة طويلة صارخة ذات نغمة مثل نغمة ضحك الحسان او كانها قطرة من قطرات الندى نائمة على اوراق زهرة ذابلة . ايتها القطرة الطاهرة اذا شئت كان لك من قلبي فراش فان قلبي زهرة الحب الذابلة الدامية . رأيتها مرة تحوك لي كفناً من الالام وهي تنظر اليّ نظرة اسف وحزن وكانها تقول لا تلزمني جناية القضاء انا امة القضاء اتبع امره ولا ارد له حكماً غير اني قد اخذت طرفة من الحكمة فتبعت قول اولئك الحكماء الذين يزعمون ان التسليم لحكم القضاء من شيمة العبد فينبغي ان تكون رغبة المرء وحاجته فيما يجيء به القضاء فيكون هو والقضاء سيان لا لانه قدير كالقضاء ولكن لانه جعل ارادة القضاء ارادته فقلت لها لا معتب عليك اني احبك حتى ولو كنت غير فاهمة ما تقولين فضحكت كما تضحك الشمس فوق القبور وكانت قد فرغت من نسج ذلك الكفن فوضعتني فيه وقبلتني قبل ان تطويه قبلة جمعت بين خلاوة النعيم ومرارة الشقاء فكانت كالحياة حلوة مرة : تركتيني يا حبيبتي بين ضحكة قاسية ودمعة قاسية

اردد نفساً اعمق من الابد وادفع الشكوى في نحر الهوآء لا أنيس لي غير سكون الفضاء وانين الصدى وذلك القلب الواهن الخفوق الذي اذوته الحوادث العاصفة كما يذوي الحر اوراق الغصون لم أنس اذ قبلتني وانت في ساعدى فامتصصت روحي في قبلتك كما يمتص الرضيع اللبن من ثدى امه ونظرت اليّ وقد انعقدت في وجهك ابتسامة كلها حنان ودعابة فوقعت لحاظك المصقولة عليّ وقوع قطرات الرحمة على النفس الصادية المجدبة وفي عينيك هالة يرقص الحسن فيها كما يرقص القمر على صفحة الماء ثم تزايلت في الفضاء وقد بسط الليل اجنحته السوداء وصبغ الهواء بمداده فبقيت كما قال رختر انا والليل ثم سمعت في القلب ضربات لم أدر ادقات الساعة ام نبضات قلب الدهر ام هي ضحكاته من غرور الانسان ام هي تنعي الى المرء نفسه ام هي مقياس العمر وميزان البقاء ام هي لسان الابد ام هي طرفات عين الدهر ام هي تذكرة بالموت وحثاً على التقوى ... ياعدو الرحمة ما وقعت لحاظك علي الا لتهييج للقلب شجواً قد وأدت الحب في ريعان شبابه ووقفت ترقص على قبره مرحاً ودلالاً لا عتاب انت الذى اسلفتني الامل وانت الذى سلبتنيه والامل كالحرباء كثير الالوان

الذكر والاماني

الذكر والاماني صنوان لزا في قرن غير ان باعث الذكر التعلق بما مضى وباعث الاماني الرغبة فيما يستقبل ومن أجل ذلك كانت الاماني أقرب الى خاطر اليافع وأحب اليه من الذكر لان عيشه مقتبل ولم يزعجه مما تقع به الحوادث الكارثة ما يخفض من غلواء طموحه وتعلقه برغائبه أما الشيخ الهرم فقد لقي من الطارقات ما تركه فقير الاماني غني الذكر والاماني اذا استثيرت كانت كالنار يتبع شبوبها خمودها وانما يستثيرها الطموح ان كل اصناف النعيم الزائل تثير الذكر الغر فينبعث اللسان بالكلم الرقيق فهو تارة يناجي الزمان الخالي وينشد فيه لذاته وتارة يتوجع من فقدانها وتارة يسألها الرجوع الى ما عهد منها الا يجول بخلدك اذا قرأت قول ابن زريق :

بالله يا منزل القصر الذي درست آياته وعفت مذ بنت اربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ام الليالي التي أمضته ترجعه

ان تلك الليالي وذلك الزمان الذي عمرته لذاته قد صار جزءاً من نفسه وشيئاً من حبة قلبه فهو لا يستطيع ان يكون بمنأى عنه وليس هو براغب في ذلك ولكنه لو رغب ما وجد الى رغبته سبيلاً وكيف يمل صحبته وهو خلاصة حياته واحق شيء منها ان يفدى من سلطان النسيان على ان الذكرى لا تكون الا بعد سطوة من سطوات النسيان فاذا كان النعيم الخالي حاضر الذكرى في ذهن المرء لم تكن ذكراه

خليقة ان تدعى ذكرى وفي مثل مانعني يقول الشريف الرضي

وقال تذكر هذا بعد فرقتنا فقلت ما كنت أنساه لاذكره

وهناك نوع آخر من الذكر لا يكون الا اذا كان المرء في حال بينها وبين تلك الحال التي وقع له فيها النعيم الزائل صلة فاذا أسعده النعيم في ليلة الاثنين مثلاً ذكر هذه الليلة حين تعود في كل أسبوع وفي مثل ما نعني يقول ابن المعتز

يا ليلة نسي الزمان بها أحداثه كوني بلا فجر
باح الظلام ببدرها ووشت فيها الصبا بمواقع القطر
ثم انقضت والقلب يتبعها في حيث ما وقعت من الدهر

(يعني بقوله وشت فيها الصبا بمواقع القطر ان القطر اذا وقع على الازهار ذات الرائحة الطيبة اخرج تلك الرائحة فتأتي ريح الصبا تحملها الى كل مكان فكانها تشي بالازهار وتبيح سرها المعطار)

الذكر نوعان ذكر النعيم الزائل وذكر الشقاء الزائل اما ذكر النعيم الزائل فانه يبعث ابتهاجاً في النفس لان ذلك النعيم كان من نصيبها ويبعث اسفاً لانه لم يدم لها ويختلف مقدار الابتهاج ومقدار الاسف فقد يغلب هذا ذاك وقد يغلب ذاك هذا حسب ما توجبه طبائع المرء اما ذكر الشقاء الزائل فانه يبعث الابتهاج للخلوص منه والاسف لانه حدث والخوف من ان يعود

الذكر اشباح وأرواح تعمر الخاطر الخرب فتثأر لذلك العهد الميت ايها الزمان الخالي لشد ما نعاني من ذلك الحجاب المنوع الذي تضعه

بيننا وبين لذاتنا البائدة واحبابنا الالى ذهبت بهم حوادث الايام كل مذهب ولكنك لا تعلم ايها الغصوب انك تحجب عنا اجزاءنا وأشياء من حنبات قلوبنا على انا نستعين بالذكر والاماني في ازاحة حجابك وهي قديرة على أسعادنا

منى ان تكن حقاً تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغدا

الطموح يثير الاماني وقد تثيرها الاشياء التي تذكر المرء رغبته كما قال الشاعر

ولما نزلنا منزلا طله الندى انيقاً وبستاناً من النور حاليا

أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الامانيا

ان الذكر تثير الاماني والاماني تثير الذكر لانك اذا ذكرت النعيم الزائل وددت ان تقع على مثله فتهيء لنفسك اسباب الطموح والبلوغ اليه ثم اذا كنت تناجي الاماني كانت تلك المناجاة عاملا في تذكيرك بمثل أمانيك أي بالنعيم الزائل

اذا عمرت الذكر والاماني نواحى الخاطر كان كانه معبد مقدس يبعث الاجلال والوقار والخشوع في النفس أليس الذكر موصولا بالنعيم البائد وهو ميت وأي نفس لا تخفض من جماحها وخلاعتها عند ذكر الموت

ان الانسان اذا مات أقيم له تمثال يجعله متردد الحضور في الذهن كلما رآه الرأي وكذلك الحادث اذا مات كان الذكر تمثاله الذي يستجلبه من قبر النسيان

قال الشاعر شلي (النعيم اذا مضى استحال الى ألم) يعني ان الذكر يبعث الحسرة على فواته ولكنها حسرة لذيذة رقيقة معسولة تمشى في الخاطر

كما يتمشى النسيم البليل على وجه التعب

ولم اجد احداً شعر بتلك الصلة المتينة التي بين الذكر والاماني مثل ما شعر بها الشاعر العربي عنترة حيث يقول

الا قاتل الله الطلول البواليا　　وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وقولك للشيء الذي لا تناله　　اذا أبصرته العين يا ليت ذاليا

لم يحمد الشاعر الطلول لانها تذكره بمن كان يعمرها وبتلك الليالي والايام التي قضاها في أحسن حال حين كان الخطب مأمون الطروق مخفوض الجناح ولم يحمد ذكري السنين التي مضت لانها كانت لباس لذاته ايام كان وفاء الاصحاب والاحباب يسعده ايام كان النعيم مضروبة قبابه عليه ايام كان الحسود متعباً من حمل ثقل الحسد ثم ان الشاعر لم يحمد في البيت الثاني الاماني لانه يحسبها خدعة وعناء ولكن من النفوس نفوساً تسكن اليها وتتخذها علالة أما جمع الشاعر بين الذكر والاماني فسببه عرفانه ان الاماني تثير الذكر والذكر تثير الاماني

وقع الاقدام

وقع الاقدام هو شعر (بكسر الشين) الارجل فان فيه من بلاغة التعبير ولطف التفهيم ما في نبضات القلب ووقع الاقدام هو للارجل بمنزلة تلك النبضات للقلب فتارة يخفق القلب فرحاً وتارة يأساً أو أسفاً أو املاً وكذلك الخطا تارة تنم عن جزع وتارة تنم عن فرح أو امل أو ندم أو جبن أليست خطا الجبان في الميدان دليلاً عليه أليست خطا العاشق قصيدة من

قصائد النسيب . أليست خطا الجازع تبين عن جزعه ؟ أرقت ليلة فجلست قرب النافذة وجعلت اتسمع وقعات أقدام المارة وكنت أجد في سماعها لذة تلهيني عن الارق وكانت تحدثني احاديث شتى عن يائس اتخذ الليل لباساً يضرب برجليه الارض كأنه يريد ان تسكت وقعات خطاه ضجيج اليأس في صدره . وعن العربيد الذي تحكي وقعات اقدامه انشودة هوجاء مثل اناشيد الريح وقد أمالت الاغصان . والمجنون الذي تحكي وقعات أقدامه نبضات قلب المحموم أو كأنها غلام أخرق يضرب بالطبل . والآمل الطموح الذي يكاد لا يلمس الارض فتحكي خطاه خطا الراقص المرح والشاعر صاحب الخيال المستفز يكاد يسمع صدى وقعات أقدامه في عالم الخيال ويخشى ان تخرق صداها قبة السماء . وصاحب الخيلاء الذي يحسب أنه يتصدق على الناس بخيلائه . والزمن الذي يسعى برجل عرجاء فلا تسبقه الريح والايام التي تحكي وقعات أقدامها دقات الساعة وخطا الغيد تتلو على سمعك لحناً مهذباً شجياً كأنه اوزان الغزل والنسيب . أو ما سمعت أيها القاريء وقع اقدام الموت في دار جارك وقد حل به القدر المتاح فحكى لك قصيدة في الرثاء ، او انين الريح في الربع الخرب والموت فتاة حسناء مرخي عليها أستار سوداء ، فقل لمن يرى ظلام الموت ولا يرى جماله ان هذا الظلام الذي تراه هو لون أستاره ودون هذه الاستار الجمال الجم

ان هذا السكون العظيم ليتلو على المرء في كل حادث من حوادثه الصامتة الناطقة نغمة من نغماته هذا السكون قلب عظيم نبضاته وقع أقدام الحوادث كل نبضة منها تبلغ اقصى نواحيه فتخفق لها جوانبه . كما

تخفق الضلوع . والوجود دائرة ليس لها محيط فاذا لمست أية نقطة منه كان لك ان تقول انك لمست مركز الدائرة

وأنت أيها القاريء فيك تلتقي الحوادث الماضية من قديم الزمن . فيك تلتقي الدول والامم . فيك يلتقي الشرق والغرب . فيك تلتقي الانظمة والآراء . فهي طرق كثيرة تؤدي اليك أنت ايضاً مركز دائرة الوجود أنت لولا الحوادث الماضية من سياسية واجتماعية وطبيعية . لولا الحوادث التي حدثت في هذا الوجود الذي لا حد له لما كنت كما أنت الآن

أما سمعت أيها القاريء خطا الغيب يطرق من وراء حجاب فراعك سماعها ولجأت الى عمل ساعتك كي يلهيك عن سماع ذلك الطارق المهيب ألا قل لمحتقر الحياة الراغب عن عمل يومه المشرئب بعنقه ليسمع وقع أقدام الغيب أيها الراغب عن ساعتك ويومك وحاجة عمرك لم تتعرف ما لم يأتك به الغيب أليس ذلك السحاب الذي وراؤه الغيب والقدر اذا قاربك كان هو الغيب والقدر ؟ لم يروعك المجهول من الحوادث أليس المعروف منها ادعى الى الروع من المجهول

اني ليخيل لي في بعض أحلام اليقظة ان الاخرة في مكان قريب من هذه الدنيا فأكاد اسمع ضجيج أهلها ووقع أقدامهم فارمي الفضاء باللحظات كالمشوق الذي يحسب ان حبيبه على كثب فاحسب اني أرى الاخرة بلحظاتي فلا أرى غير هذا الناس

ألم تنصت الى الربيع القادم وقد بلغ الشتاء مبلغه

فجاء الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد ان يتكلما

فسمعت وقع اقدامه وكانه حسناء في ساقيها الخلاخيل تسمع رنة اجراسها في تغريد العصافير . والصباح ألم تسمع وقع اقدامه انما الصباح أخو الربيع الاصغر قد عني به الربيع فعلق في ساقيه من خلاخيله تحبباً اليه ألم تسمع رنات أجراسها وقد صدحت الطيور في الفجر وقد هب النائم من مضجعه ورأى مطلع الشمس فحسب ان الكون يخلق مرة جديدة

زرت المقابر في ليلة من ليالي الشتاء فخيل لي اني اسمع اقدام الموتى فصرت اتلفت لاري تلك الاقدام التي اسمع وقعاتها ثم عوي الريح في زوايا القبور فحسبته انين الموتى فجعل الخيال المشبوب يملي علي وانا اكتب

الا ان للموتى لصوتاً كأنه ... خرير المياه الجاريات على الصلد

ويحكي حفيف الغصن فى لين وقعه ... وطوراً كاصداء الطبول على بعد

ويعول أحياناً كاعوال ثاكل ... رمتها صروف الدهر فى الولد الفرد[1]

انه ليخيل لي ان الاطفال يسمعون وقع اقدام الملائكة ألم ترَ طفلا يصغي اليها فحسبته يصغي الى غير شيء

الم تسمع وقع اقدام الافلاك فى دوراتها ؟ هل سما بك الخيال مرة بين الشمس والقمر والنجوم فسمعت تلك النغمات الفضية التي تطلقها خطا الافلاك فى دوراتها ام هل غبت مرة عن هذا الكون وجعلت ترخي للتفكير عنانه حتى حسبت انك كائن فى غير هذا الكون وقد خيل لك الوجود الذي لا حد له وهو يخطو فى الفضاء فسمعت وقع اقدامه ؟ آه ما الذ تلك السويعات التي يطلق المرء فيها من رق هذا الوجود فيصير وجوداً كائنا بذاته

(١) من قصيدة (صوت الموتى) في الجزء الثاني من ديوان المؤلف

كلمة

في الضحك والبكاء

قال الشاعر يرون المرء ارجوحة بين البكاء والضحك

وانما المرء ضحكة ودمعة والحياة دمعتان دمعة تراق عند البكاء ودمعة تراق عند الضحك والعاقل من جعل حياته ضحكة واحدة أو دمعة يرتقها عند الضحك ويضن بها على البكاء فيسكن البيت الضاحك المشمس ويرغب في الصديق الضاحك

الضحك عدو الهم وكما ان القنبلة تبعث الوجل في قلب الجيش كذلك الضحكات تفزع الهموم

وأوجع البكاء بكاء الرجل . أما بكاء الغلام فقد لا يحز في قلبه فانه دامع العين ضاحك القلب . حدثني صديق قال بكيت مرة وانا صغير ولكني كنت مشغولاً عن بكائي بالتفكير في غير شيء ولقد بلغ بي ذلك التفكير الطائش منزلة لم أكن اعرف فيها اني أبكي . أما الرجل فانه اذا بكت عينه بكت عواطفه وبكى قلبه

كل شيء في الوجود يضحك فالرعد يضحك والريح الهوجاء اذا أنت ضحكت والحرير يضحك والضوء يضحك واللون يضحك والحسن يضحك والصدق يضحك والزهر يضحك والربيع يضحك . فقد قال البحتري :

وجاء الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد ان يتكلما

والمشيب يضحك فقد قال دعبل :

لا تعجبي يا سلم من رجلٍ ضحك المشيب برأسه فبكى

والارض تضحك فقد قال الشاعر :

(تضحك الارض من بكاء السماء)

واني اكاد أقول ان الضحك بكاء والبكاء ضحك ألم يضحك الانسان في الشقاء ولم يبك في النعيم . أما ضحكه من الشقاء فادعه اذا شئت الضحك المر أو الضحك الباكي أو الضحك الحزين أو الضحك العابس أو البكاء المتنكر . وأما بكاؤه من النعيم فادعه اذا شئت البكاء المشرق أو البكاء الضاحك أو البكاء العذب

وللمعاني والاحوال ضحكات فلليأس ضحكة وللحقد ضحكة وللامل ضحكة وللظفر ضحكة وللحب ضحكة . ومن العظماء من نبه ذكر ضحكته وذاع صيتها فانهم يقولون في ضحكة الاحتقار ضحكة مثل ضحكة بيرون وفي ضحكة الامل والاستبشار ضحكة مثل ضحكة جيتي

الغناء ضحك والموسيقى ضحك غير انه ضحك موزون مهذب شجي

وان لاحوال الحياة ضحكات فالنعيم يضحك لانه يخدعنا والشقاء يضحك لانه يشمت بنا كذلك للحرارة ضحك وللبرودة ضحك غير ان ضحك الحرارة مثل ضحك الشبان وضحك البرودة مثل ضحك الشيب . ضحك الاطفال مثل تغريد العصافير وضحك النساء مثل صوت الحلي وضحك الرجال مثل صوت الرعد فالاول ينم عما يكنه من الطهارة والثاني ينم عما يكنه من الرقة واللطف والحنان والثالث ينم عما يكنه من الثبات والعزم . الرجال يلتذون الضحك اكثر من الاطفال لانهم زاولوا مصائب الحياة

وكما ان الراحة أحسن ما تكون بعد التعب كذلك الضحك أعذب مايكون بعد مزاولة امور الحياة والرجال اقرب الى الضحك من النساء لغلظ احساسهم ورقة احساسهنّ فان رقة الاحساس ثغرة يهجم الهم منها على الانسان

الضحك العذب خير من البكاء العذب وكذلك الضحك المر أفضل من البكاء المر لان في عنصر الاول شيئاً من احتقار المصائب وهذا أليق بالعزيز النفس وبه أبرّ — وان في الناس من يضحك فتحسبه يبكي ومن يبكي فتحسبه يضحك وهذا أشقى الناس لانه لا يقدر ان يخلط نفسه بنفوسهم وشعوره بشعورهم وان من الناس من يستجلب منظره لآخر الضحك كما قال المتنبي في كافور :

ومثلك يؤتي من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

ومن رحمة الله ان المرء مهما كرثه الشقاء قادر على الضحك فاذا تكلف الضحك خرج ضحكه سقيماً فاتر الصوت مكذوباً ولكنه اذا لجّ في هذا الضحك المكذوب الحزين انقلب ضحكاً مجنوناً غالباً لا سبب ولا حد له هذا من رحمة الله بالناس

نظر الشاعر الى الطبيعة

﴿ في النعيم والشقاء ﴾

إذا كان لك من المقدار سلطانه الذي يصول به لم تقدر ان تمنع الشاعر من ان تفرغ ما يثور به صدره . أتحسب ان الغريد اذا ضمته اسلاك القفص كانت مانعة اياه من الغناء العذب أو ان الشقاء اذا حنيت عليه اضالع الاديب

اسكته ؟ ان البلبل اذا اطلق نغماته وهو آخذ باطراف النعيم بين الاشجار والانهار كساها الجلال جلبابه ونشرت حولها الطلاقة هالتها اما اذا جاد بها وهو في سجنه كانت كأنها لابسة حداداً او كأنها صوت المريض المودع عواده فتثير عواطف الرحمة والخشوع ويكون جمالها في هذه الحال مثل جمال السحب التي طرزت اطرافها أشعة الشمس الذهبية فكأنها البرد الاسود المزركش الذي يجمع بين اللون العابس واللون الضاحك .

قد ضمن المتنبي في نفسه من المرارة وسوء الظن بالناس ما يضمره كل من قصر عن ادراك آماله واطماعه ولكن تلك المرارة لم تكن داعية الى اضعاف لذة التغريد فان من قيد البحث بنفوس الشعراء علم ان المرارة لا تمحو تلك اللذة وانما تكسبها ألماً لذيذاً ولو اننا أردنا ان نصف جمال شعر الاديب البائس لما وصفناه بابلغ من قولنا الجمال الحزين أو البهاء العابس فانك اذا رأيت حسناء بلغ منها المرض مبلغاً عرفت ان ماء الحسن جائل في انحائها ولكن الألم يكسبها رقة ولطفاً غير رقتها ولطفها كذلك نغمات الشاعر الذي تملكه الشقاء

أليس عجيباً ان ذلك الشاعر الأبي ذا الاماني الضخمة الذي يقول :

وكل ما قد خلق الـ ... لـه وما لم يخلق
محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

يعرف كيف يتودد ويتحبب الى الاسد حيث يقول :

اجارك يا أسد الفراديس مكرم ... فتسكن نفسي أم مهان فمسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة ... أحاذر من لص ومنك ومنهم

فهل لك في حلفي على ما أريده　　فاني باسباب المعيشة أعلم

اذاً لا تاك الرزق من كل وجهة　　واثريت مما تغنمين وأغنم

ألا يجول بخاطرك ايها القاريء ان قائل هذه الابيات قد استعار براعة السياسي المدرب والسفير الحكيم رسول الصلح

اذا سمع الشاعر الحزين غريداً يرسل النغمات العذاب التي يخفق لها القلب خفوق الثوب في مهب الريح . زعم انه ينوح من اجل شقائه واذا رأى الورد يقطر بالندى حسب انه يبكي عليه واذا رأى النهر يتدفق قال ان خريره من انينه وماءه من بكائه واذا سمع الريح الهوجاء قال انها خلست هياجها وقلها من هياجه وقلقه واذا عانق النسيم اوراق الغصن الزاهي حسب انه استعار حنينه واذا رأى السحب ترخى على السماء ستراً قال انها مقدودة من همومه واحزانه اما القطر فهو من آماقه والظلام حداد الليالي عليه والنجوم جمرات اشجانه واشواقه ثم لا يبقى شيئاً من اعضاء الطبيعة حتى يجعله من خدامه واتباعه مثل ذلك قول الشاعر الاندلسي :

عليّ والا ما بكاء الغمائم　　وفيّ والا ما نواح الحمائم

وعني تطير الريح صرخة طالب　　لثأر ويبدي البرق صفحة صارم

يا بن آدم ما اكثر انانيتك واعلاءك لشأن نفسك واعجابك بها وما اكثر غرورك وانت الضئيل الحقير ان للطبيعة واجزائها لشؤوناً اذا استعرضتها لحق الهزال شأنك . تقول ان الطير يبكي على مصرعك وهو يتغنى بالغزل الرقيق وتقول ان السحب مقدودة من همومك وهي تملأ وجه السماء لترضع بناتها الازهار من لبانها فاذا شئت رأيت ان اجزاء الطبيعة ملؤها الجلال

والحب والحسن والرقة فكيف ترضى لنفسك ان تكون ملؤها الدناءة والقساوة والطمع اذا كنت لا تستمد شرف النفس وجلالها من الطبيعة فدع هذه العروس مطمئنة في خدرها ولا تفسد هواءها بانفاسك الخبيثة ونظراتك اللئيمة ولا تدنس ارضها المقدسة بقدمك التي لا تسعى الا الى ارضاء شرهك او بغضك او دناءة نفسك فانت كالحشرات التي ترود في جنباتها

لقد كان القدماء اصدق منا نظراً في الامور لانهم لم تملكهم الانانية كما تملكتنا فزعمنا ان الطبيعة ليس لها حياة مثلنا ألا يرى المرء في كل ورقة من اوراقها من المعاني اشياء كثيرة أليس ذلك لان لها حياة اجل من حياتنا التي ليس فيها من المعاني سوى الاحساس بعبثها معنى العبث وسبب ذلك ان حياتها بالرغم من تغاير اطوارها مطمئنة واما حياتنا فهي اسيرة البغض والحسد واللؤم . انظر الى الطبيعة ترى الارض تعانق الضياء والضياء يغازل الماء والغصن يميل على الغصن والموجة تتسرب في خلال الموجة فهما اولى ببيت اسماعيل باشا صبري

كأن صديقاً في خلال صديقه تسرب اثناء العناق وغابا

ثم انظر الى الناس تر كل فرد يرمي الآخر بعين من تلك العيون التي يقول فيها ابو تمام

يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض

او التي يقول فيها البحتري

وفي عينيك ترجمة اراها تدل على الضغائن والحقود

لقد صدق البحتري فان العين لا تخفي معانيها فهي تارة حشوها امل وتارة

يأس وتارة حشوها حب وتارة حشوها بغض وغير ذلك من المعاني

قلنا ان القدماء كانوا احسن منا نظراً في الامور لانهم كانوا اذا نظروا الى الطبيعة نظروا الى حي جليل ملؤه المعاني البليغة ومن اجل ذلك كانت تبعث في نفوسهم الاجلال والخشوع أو الصبابة والاستعبار والحب وكل هذه معان من معاني العبادة فما اخلقهم بعرفان ما نجهله من اسرار العقيدة الصحيحة .

وقد اختلف الشعراء في نظرهم الى الطبيعة فكان الشاعر شلي يرى انها وعاء للحب والعواطف الرقيقة

اما ورز وارث فقد كان ينظر منها الى تغير حالاتها واختلاف انواعها حاسباً ان ذلك صادر عن حسن تفكير اما هومير الشاعر اليوناني فقد كان يرى في جلالها ما هو جدير بالتقديس والعبادة

وكان ولتر سكوت يرى في حياتها استقلالاً عن حياتنا وانك لتجده في شعره يلحقها بغيرها من الاشياء ذات الحياة وقد سلك البارودي في هذا الباب مسلكاً حسناً حيث قال

وان مررت على الروحاء فامر لها اخلاف سارية هتانة الديم
من الغزار اللواتي في حوالبها ري النواهل من زرع ومن نعم

ألا ترى انه جمع بين الزرع والنعم جاعلاً شرب الحيوان مثل شرب النبات وفي ذلك من شرف الخيال ما يستعصي على أولئك الشعراء الذين يتضاءلون امام العظماء تضاؤل اعقاب لفائف التبغ في عين الشمس

رسول الامل

يقول الناس ان رغبة المرء في الحياة تعظم اذا عظم النعيم وتقل اذا تضاءل زاعمين ان النعيم هو الذي يربط المرء بالحياة ويرغبه في البقاء ولكن هذا وهم فانه يربط المرء بالحياة روابط تختلف حسب اختلاف ازمان الحياة واحوالها ففي الصبا يربط المرء بالحياة روابط الاماني فاذا تملكه الشقاء كان غير مباليه طموحاً الى ما يستقبل وانتظاراً لمؤاتاة النعيم وفي الرجولة يربط المرء بالحياة روابط السعي والعمل وانتظار نتيجة مساعيه والتذاذها وان المساعي لتكاد تشغل الرجل عن لذات الحياة وهي التي تلتمس في الاهل والاصحاب والشعر والجمال والغناء فيكون حاله مثل حال الرجل الذي يسرع في طريق ينبت على جانبيها الغرس الكريم والثمر الطيب والزهر البهي فان سائقاً من الامل يعجله عن أن ينعم بها رغبة ان يصل الى ما هو خير منها حتى اذا بلغ من الطريق غايتها لم يرَ غير ارض خلاء ولو احسن الانسان نظره في أمور الحياة علم ان افضل لذاتها ما يكتسب من الاهل والاصحاب والشعر والجمال والغناء وغير ذلك من الموارد ذات اللذات الشريفة التي تعلو بالنفس عن الفناء في عبادة درن الحياة اني لست ناصحاً للرجل ان يهجر مساعيه وانما اريد منه ان يقصر من غلواء اندفاعه فيها حتى يقدر ان ينعم بلذات الحياة . اما اذا بلغ المرء من حياته منزلة الشيخ كان التذكر هو الذي يجعل له في الحياة رغبة لان كل شيء مضى منها قد صار جزءاً من نفسه

مثل هذه النفس مثل الطفل ذي الخلق الجامح لا يهدأ حتى تضع في فمه

قطعة من الحلوى وكذلك النفس لا تروضها باحسن من ان تغذيها بالامل ولو كان ممنوعا مصدره مخلوفا اكثره غير ان ابهى واعظم ما يكون الامل اذا كان المرء في حال من احوال الشقاء فهو كما قال البحتري

كالكوكب الدري اخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلى

قال الفيلسوف باكون (الامل يطيل الحياة اذا لم يكن مخلوفاً في كل حادثة) على انه مثل الجلد اذا كنت في حال لا يتسع لها قدره امكنك ان تطيله وهو مثل الحبل الذي يربط السفينة الى جانب المرفأ والنجم الذي يهتدي به السائح والاثر الذي يقفوه العربي والسراب الخلوب والدرع الحصين

ويقول العامة ان اولاد يعقوب لما رموا اخاهم السيد يوسف في الجب بعث الله له ملكاً من الملائكة الكرام يتلقاه في اسفل الجب واني لاحسب ان ذلك الملك هو الامل.

لم يجتمع في شيء من الاضداد ما اجتمع في الامل فهو جليل حقير كبير صغير قوي ضعيف قادر عاجز بل هو الطبيب الذي عنده لكل داء دواء بل هو الحديقة التي تنبت انواعاً شتى من الازهار والفواكه بل هو البرق في السحاب بل هو مقذاف في يد الغريق والامل مثل حجر الفيلسوف الذي يغير عناصر الاشياء فاذا مس الحديد صار ذهباً وكذلك الامل اذا مس الشقاء جعله نعيماً وهو مثل المصباح ذي الدهن المعجون بالطيب يبعث نوراً يستضيء به العقل وحراً تصطلي به الضلوع الباردة من اليأس ورائحة زكية تسري في انف الناشق التعب فكأنها انفاس المسيح التي كان يحيي بها الموتى

ولكن خليقاً بالمرء ان يحذر الامل من حيث يأمنه لانه اذا علق آماله

بالمستحيل كان مثل الرجل الذي بنى بيتاً على اساس ضعيف فلما احتواه البيت تهدم فوقه فصار قبره

على ان تأثير اليأس في النفوس يختلف حسب اختلاف طبائعها فانه يبعث الالم والشقاء في بعضها ويبعث الراحة والكسل في بعض

ان بعض الناس ينصب لنفسه الاماني وهو يعرف انها علالة حتى اذا اخذت بلبه خادع نفسه وجعل يتطلب تحقيقها ويذل عقله لسلطانها فهو في هذه الحال مثل الوثني الذي ينصب صنماً من عمله ثم يعبده او كالامة التي تضع فوقها ملكاً من صنعها حتى اذا استبد وطغى استذلت انفسها له زاعمة ان له حق الاستبداد بها على انه لو لم يكن في الاماني الا انها اذا تعلل بها المرء الذي نزل به الشقاء خلقت لشقائه اجنحة يطير بها نكفاها ذلك مقرظاً لها

ان الانسان ليستضيف الشقاء بأن يأمل السعادة الكاملة لان مساعيه المهزومة تفتح عليه ابواباً وتجلب اليه ضروباً من الهموم وان رجاء المرء السعادة الكاملة مثل رجاء الغلام ان يقفز فوق ظله اذا رآه منبسطاً امامه على ان سعادة الانسان موقوفة على سياسة الانسان للاحوال التي تحوطه قال انطونينس (اذا اردت ان تعيش سعيداً فكن اكثر شبهاً بالمصارع منك بالراقص فان ثبات الاول ينفعك من حيث تضرك خفة الثاني ورشاقة وقفته) ولكني اقول ان المرء في حاجة الى الوقفتين وقفة المصارع ووقفة الراقص فينبغي له ان يتعرف الحال التي هو فيها ثم يلتمس الوقفة التي تنصره عليها

الأيمان بالحياة

في ليلة من ليالي الدهر اذكرها ما وقعت على مثلها وعادت بذكرى ذلك الاحساس الذي جعلني اكتب هذا . قمت من النوم فزعاً واشفاقاً على تلك الشعلة التي يخشى خمودها تلك الحياة التي نجلها ولو كان ملؤها الشقاء فكم من حزين لم يدع له الدهر نعيماً الا سلبه يتعلق منها بخيط الاماني ولو سألت رجلاً جمع في شخصه ثلاثة فكان المقعد الاصم الاعمى عما يرى في الحياة من النعيم لقال بان فضيلة البقاء في البقاء لان في الحياة لذة ليست من تلك اللذات التي تملأ اوقاتها بل هي حقيقة في نفسها كائنة بنفسها

سمعت في تلك الليلة صوت النادبات عن قرب فامتلكني الفزع فجعلت أرفه عني بالتفكير لان فيه حياة احسن من الحياة بل هو الحياة ثم تدليت من النافذة فأخذت وجه السماء بنظرة حائرة فاذا هو وجه سقيم مثل وجه المرآة اذا نظر اليها الحزين .

وقد يأخذ علينا هذا من يقول ان الطبيعة هي التي تطبع على المرء صورتها الحسنة او القبيحة فتعين احساسه ان يكون ابتهاجاً او امتعاضاً ولقد كاد يكون هذا القول حقاً في جميع حالاته لولا ان الاحساس درجات وقد يبلغ بالمرء درجة يمتلكه فيها فيقيس به الاشياء ويحكم عليها بحكمه وقد يسلك الاحساس بالمرء مسلك الحزن حتى ينتهي به الى هذه الدرجة فيريه الحسن من الطبيعة قبيحاً

من سودت نار الجوى عيشه   يسود في عينيه ضوء الضحى

واذا سلك الاحساس بالمرء مسلك الاستبشار اراه كل شيء من

الطبيعة حسناً

على ان جمال الطبيعة قائم بذاته مهما اختلفت هيئاته وتباينت صوره فليس الليل المقمر او الروض الاخضر أو اليوم الازهر بمغط على بهاء وجلال الليل الحداري والدجن المستقر وجعلت هذه الافكار تترد في ذهني

كترددالامال في   خلد الطموح المتري

فأحدثت عندي اندفاعاً الى معرفة المجهول من امر الحياة الذى هو مفتاح اسرارها والذي نحوم حوله ولكنالا نصل الى مركز الدائرة منه ولكن أين انا منه وقد اخطأه الباحثون والعلماء وسألت نفسي عن تلك الحياة الجديدة التي احسست بها فعلمت ان ذلك الاحساس هو البرء من الداء فانا نقضي اكثر العمر في غربة عن انفسنا فلا نرجع اليها حتى يردنا احساس بكارث دخل علينا او على غيرنا نحن نعلم اننا احياء ولكنا لا نؤمن بالحياة ثم اننا نخادع انفسنا ونزعم اننا نؤمن بها لاننا نحسب ان معنى الحياة التنفس ولو انصفنا الحق لعلمنا انه الشعور باعباء الحياة وما تتطلبه من القلق من اجل اختلال شؤونها وما يحث عليه ذلك القلق من الدأب في اصلاحها

اني نظرت في احوال هذا الجيل الذي نعيش فيه فوجدت ان سالف الدهر على ما به من ظلمة الجهل وما تضمره من الشر احب الي من هذا الدهر الذي يدعونه عصر العلم والسكينة لان الاولين كانوا اذا عرفوا شيئاً آمنوا به ولكنا نعرف ولا نعتقد وربما قال قائل ان العلم بالشيء هو الاعتقاد به ولكنا لا نقف معه في هذا الوادي لان العلم بالشيء لا يصير اعتقاداً الا اذا امتلاء من الاحساس

ثم اني نظرت في فقدان ذلك الاحساس فعلمت ان سببه اندفاع الاولين في سبيله فقد بلغ منهم الاحساس مبلغاً وتملكهم الاعتقاد فعظم ايمانهم بما رأوه حقاً وان لم يكن كذلك فنازعوا البقاء من خالفهم في عقيدتهم فان من سنن الحياة ان يتبع الشيء نقيضه فتلتقي الاطراف عند ابتعادها ونحن لا نريد لانفسنا حالاً مثل حالهم ولا نرغب فيها ولكننا نريد ان يكون اعتقادنا بقدر ما عندنا من العلم ولو صح لنا ذلك لكنا في حياة هي الحياة التي خلقنا الله لنسعد بها فاذا قال قائل ان العلم ينافي الاحساس قلنا له ان العلم لا يكون الا اذا دخل التفكير شيء من الاحساس فكيف ينافي الاحساس وجود العلم اذا كان العلم لا يستقيم الا به ونستخرج من ذلك انه اذا كان القليل من الاحساس يستعين به التفكير في ايجاد العلم فان الكثير منه يمكن العلم من النفس حتى يصير اعتقاداً وان الذي غرر بالمعترض حتى زعم ما زعم هو انه نظر في حال الاولين ثم في حالنا فوجد عندهم جهلاً واحساساً كثيراً (واذا شئت قلت بدل الجهل قليلا من العلم) ووجد عندنا علماً واحساساً قليلاً (واذا شئت قلت بدل العلم جهلاً اقل من جهلهم

ولو انصف لعلم ان ذلك رد فعل حدث من اندفاعهم في طرف واندفاعنا في ضده

ان من مناظر الحياة التي يسخر منها الساخر ويضحك الضاحك ويبكي الباكي ويحزن الحزين ان نرى في منزلة بين الشك واليقين بين الانكار والاعتقاد اني انظر في تاريخ كل اضطراب كان باعثه الايمان بالحياة فاتناسى كل ما علق به من الشر لان باعثه الايمان بالحياة وأرى اعراض الناس عن

فهم معاني الحياة سكوناً الى المظاهر ورغبة فيها ومن الواضح الثابت ان الانسان اذا تنعم بالحياة وكثرت موارد خيراتها صعب عليه ان يؤمن بها او ان يسعى في تحسينها ولقد اعجبتني كلمة في هذا الباب لنابليون الاول وهي ان كل التعاليم القائمة تقع كالبناء المتهدم عند ذكر الايمان ...

ثم ان الايمان بالحياة يبعث النشاط في قلب الآمل والاقدام في قلب الجبان ويمهد مسالك السعي ويوطئ مراقي الفضل ويمكن الثقة بالله وبالناس من قلب الانسان

قد يتدفق التفكير بالحقائق التي تجعل الحياة طيبة اذا اندفع في سبيل الايمان بالحياة التي خلقنا لنسعد بها حسب استطاعتنا ولكنه قد يتجهم ويمكن اليأس من القلوب اذا اندفع في غير ذلك السبيل السوي

كان لي منذ زمن ميل الى مذهب (اللاأدرية) فان فيه راحة للبال من الوساوس التي تعتور الانسان واستقراراً بعد ذلك القلق الذي يتملك الانسان في سبيل البحث عن اسرار الحياة ومعانيها وأولها وآخرها ولكن فيه مع ذلك قتلاً للاحساس ومحواً لمبالاة ما يقع في الحياة على ان ذلك الاحساس وتلك المبالاة اللذين يبعثان القلق هما معنى الرغبة في الحياة فاذا قتلا ضعف أملنا وايماننا بالحياة وحسبناها خدعة فتنقبض قوانا المندفعة في مقاومة الصعاب واذا صح ذلك عندنا صح أيضاً ان الانسان خلق كي لا يستقر الا على قلق لان ذلك القلق هو الباعث على الحركة التي تسير بالوجود الى منازل مختلفة (وربما كان منها ما هو من منازل الاصلاح)

ولكن أحمد مواقف اللاأدرية شعور الانسان بضعفه امام القوة العظمى

فان في ذلك الشعور معرفة لقوانا ولما هي قادرة عليه فيكون سعينا على علم وتبصر ولقد قال الفيلسوف سقراط كلمة في هذا المعنى (وأظنها وردت في جمهورية أفلاطون) « الناس كلهم جهلاء ولكني امتاز عنهم بعرفاني اني جاهل وبجهلهم انهم جاهلون »

قال اسماعيل باشا صبري :

وان تبك ميتاً ضمه القبر فادخر   لميت على قيد الحياة دموعا

لكأن ذلك الميت الذي على قيد الحياة الرجل الذي لا يبالي شؤون هذا الوجود ولا يتألم من اختلالها فهو لا يبذل جهداً في اصلاحها وتلك انانية وبخل ولؤم

واذا كان الامل اعظم ما يتملكه الانسان في هذه الحياة فلم لا نأخذ بقول اميل زولا « يجب ان نثق بالطبيعة الانسانية وليست هي التي زعم جان جاك روسو انها خالصة من الشوائب ولكنها هي التي يجب ان نرجى ما يستقبل من امرها وان نثق بها بالرغم مما يشوبها من الدناءة والقسوة والقبح ويجب ان نعلق آمالنا باجهادنا لقوانا وما وراء ذلك من العمل وان نعتقد ان سعينا موصول بغاية حميدة ولو اننا لا نعيش حتى نرى ذلك »

الذوق

جاء في قصة دون كيشوت للكاتب الاسباني الشهير سرفانتس ان رجلاً اشترى زقاً من الخمر المعتقة ودعا أصحابه ليذيقهم لذاذتها ويسمع منهم كلمات الثناء عليها فلما ذاقها احدهم صمت قليلاً ثم قال لقد كانت تكون بالغة غاية اللذاذة لولا ان مذاقها يشوبه مذاق الحديد وذاقها آخر فصمت مثل الاول ثم قال لقد كانت تكون بالغة غاية اللذاذة لولا ما يشوب مذاقها من مذاق الجلد فجعل الحاضرون يسخرون منهما ويتهمونهما بسقم في الذوق فلما افرغ الزق وجدوا فيه قفلاً من الحديد ربطت به قطعة من الجلد فجعلوا يعجبون من سلامة ذوقيهما وعرفانهما دقائق الامور

وانما أوردنا هذه القصة لنضرب مثلاً للاذواق وكيف ان الصحيح منها ما كان قديراً على تتبع الاجزاء الدقيقة فلو عرض عليك كتاب وسئلت رأيك فيه وكنت نافذاً الى حسناته كان خليقاً بك ان لا تحيد عن الرأي الرجيح ثم انك لا تكون صادق الحكم في آداب اللغة العربية مثلاً الا اذا درست آداب العصور التي تعاقبت عليها فاذا درست اداب عصر واحد كان رأيك ابعد ما يكون من الصواب ومثلك مثل الحكم الذي اذا سمع شهود الاثبات اقادمن المتهم قبل أن يسمع شهود النفي فاذا اردت أن لا تضل اصالة الرأي كان خليقاً بك ان تعرف انحاء الامر الذي انت حاكم فيه فاذا اردت ان تكون ناقداً لفن التصوير ولم تدرس الا صور الاوائل مثل روفائيل وتشيان خفيت عنك حسنات المصورين اصحاب المذاهب المخالفة لمذاهب الاوائل

والاذواق تتفق في اشياء وتختلف في أخرى من حيث الاستملاح والاستهجان فما اجتمعت عليه الاذواق فهو ذوق عام وما اختلفت عليه فهو ذوق خاص ولكل امرىءٍ من هذا نصيب حسب اهوائه وطبائعه وماتغذى به احساسه وما وقعت عليه حواسه ولا يجحد أحد ان في دائرة الذوق ما يتفق عليه الكثير ولولا ذلك ما كان بين الناس صلات لانها لا تكون الا بمقدار من التعارف والتعارف لا يكون الا بمقدار من التشابه في الاذواق ولقد رأيت الناس يعرضون ما يعالجونه من المسائل العقلية على عواطفهم جاعلين لها سلطاناً على قوة المحاجة ويحكمونها في أشياء لا تقوى على أن تحسن مناصحتهم فيها وتبدي لهم عن الرأي الرجيح ورأيتهم يهملون ملكة انتقاد النفس فلا يتعهدونها بما يصلح من شأنها ويعمل في انمائها حتى تضعف فتضعف قوة الحكم على الحقائق بقدر ضعفها ورأيت اناساً رفضوا ما تصدره عواطفهم من سنن وعادات واساءوا الظن بها اتكالا على قوة المحاجة وما رأوا فيها من الحكمة والتدبير ولكن فاتهم ان للعواطف مجالاً في كثير من الامور وما تقول في رجل يرى زوجه فيريد ان يعرف نصيبها من الجمال فيقول في نفسه ان طول أنفها خمسة اشبار ونصف وهكذا يريد ان يعرف مقدار تناسب اعضائها والتناسب معنى من معاني الجمال فكأنما هو موظف من موظفي مصلحة المساحة وقد أمر ان يقيس قطعة من الارض

فليس جمال المعاني ومعاني الجمال مما يحكم فيه قوى العقل غالبة للعواطف ولا هو نظرية تحل بالتفكير فيها حتى انه قيل اذا لم يكن ناقد الشعر ذا عواطف مشبوبة كان خليقاً به ان يجد لنفسه مهنة أخرى

فالعواطف هي اكثر الاشياء سلطاناً على الاذواق فاذا كانت العواطف سقيمة كانت الاذواق كذلك ولا شيء يفسد العواطف مثل مزاولة المرذول فان المرء لا يزال حتى يراه لاسباب الفضل جامعاً ولاصناف الحسن شاملاً وحتى لا يرى الفضل الا فيه فانك لتنشد الازهري في ازهره والشاب في دار تمثيله ما يسمع الصم فلا يسوءك الا انك طربت ولم يطرب وعرضت بضاعة لو صادفت ذا ذوق صحيح ما ردها عليك ولكن

تعرض الاشياء في اوطانها　　　أفة الجوهران لا يعرفا[1]

واذا بالاول ينشدك من حواشيه ومتونه ما يزيده في فتونه واذا بالثاني يتغنى بشعر ملوءه الوهن والغميزة فانشدهما قول البحتري :

ان الخطوب طوينني ونشرنني　　　عبث الوليد بجانب القرطاس

وقل لهما انظرا كيف جعل الخطوب لا تعرف ما هي فاعلة به كما يعبث الطفل بجانب الورقة فتارة يطويها وتارة ينشرها وانشده قول الشريف :

ينأى ويدنو على خضراء مورقة　　　لعب النعامى باوراق وأغصان .

(النعامى ريح) فانه جعل مرح الانسان في النعيم مثل لعب الريح بالاغصان والاوراق فلا تجد منه بعد ذلك الا ازوراراً مثل ازورار التقي عن مظان الريبة

اجتمع اعاظم المصورين وصنع كلٌّ صورة املاها عليه ذوقه زعم انها بلغت غاية الجمال اذا رأيتها وجدت اختلافاً عظيماً ينبيء عن مثله في اذواق هؤلاء المصورين وربما كان بين تلك الرسوم ما يستسمجه بعضهم على انك لو قلت لهم ماهي

---

(١) من الجزء الاول من ديوان المؤلف

اصول الجمال لقالوا كذا وكذا واتفقوا على اشياء عامة حتى اذا عرضوا عليك ما يستملحونه من معاني الجمال عجبت لاختلافهم فيما يعرضونه عليك ومن اجل ذلك قال العلامة داود هيوم الاذواق تتفق في الاصول العامة وتختلف في الامثلة الخاصة والافكار بعكس ذلك تتناكر في النظريات العامة حتى اذا ولج بها البحث الى الدقائق ادت بها الى التعارف

على انه مهما تباينت الاذواق فان لذلك التباين حداً اذا تعداه امرؤ عد سقيم الذوق فاذا تمارى اثنان في تفضيل ابن المعتز على البحتري كان احدهما مصيباً والآخر مخطئاً ولكن خطأ المخطيء لا يعزى الى سقم في ذوقه اما اذا لج امرؤ في تفضيل ابن الفارض على البحتري فلا نجد له شيئاً احسن من ان نرجو له مغفرة واسعة

ولقد وضع اناس الاخلاق في دائرة الذوق لان الناس متفقون على اصول عامة مثل بغض الشر وحب الخير ولكنك اذا أردت ان تقسم الافعال الى خير وشر وجدت اختلافاً كبيراً في تقسيم الامم لها ألا ترى ان العرب لم تكن ترى حرجاً في الاغارة وان الاسباني كان لا يجد حرجاً في ان يجعل السيف سلاحه الذي يقتل به عدوه ولكنه يأبى ان يجعل السم سلاحه خيفة ان تنسب اليه فظاظة في الخلق اما العادات فهي بنات الاذواق فاذا كثرت العادات وقيدت المذنب نمت كثرتها وتقييدها اياه على سقم في ذوقه ومن الذي ينعم بالحمل الثقيل

رداء ولا رداء

اذا كنا نحمد العرى من اجل انه يسلك الناس في صعيد واحد غير رافع للغني شأناً ولا خافض للفقير جناحاً فخليق بنا ان نحمد الكساء من اجل انه باعث الحياء في الصدر والحياء غذاء الضمير ولا خلاق لقوم لم تصح ضمائرهم ياعجباً للمرء ان أجل شيء فيه مستجلب من كسائه ذلك الكساء الذي كان شعراً على ناقة او ذنباً لبعير لوث البعر ذنبه[1] الا قل لمن لا يرفع للمادة شأناً ولا يقيم لها وزناً لقد طوح بك الضلال أما رأيت كيف انها تحيي الحياء فتحيي بحياته الضمائر والاخلاق ولو انك رميتها بنظر صادق لعلمت انها الوجود وروح الوجود فاذا زعمت انها روح الوجود فقل مع (بركلى) ان ليس في الوجود مادة فاذا ظنوا بك الظنون فقل كل عقل تظن به الظنون. يقسم الناس الوجود الى مادة وقوة أو الى جسم وروح فيخطئون في بعض ما يعنون لأن القوة في المادة والمادة في القوة وهما شيئان لا يفترقان أبداً ومن اجل ذلك انظر الى ما يدعوه الناس جماداً غير ذى حياة فلا أراه كذلك . تلك الفاكهة العفنة لولا ان فيها من القوة شيئاً لما قدرت ان تعفن وذلك الغصن الذاوي كيف يذوي اذا لم يكن فيه من القوة ما يذويه فاذا فهمت ذلك عرفت ان كل شيء في الوجود حي وان الفناء معنى من معاني البقاء لانه انتقال من حياة الى حياة ومن هيئة الى هيئة . قال بركلى ان ليس في الوجود مادة فصدق وقال علماء

---

(١) هذا يراد به السخر لان كل الضمير غير مكتسب من الكساء ولم تنشأ فائدته الخلقية حتى نشأ الضمير

الفسيلوجيا ليس في الوجود ما يسمى عقلاً أو روحاً فلم يكذبوا .... هنا يقف الضئيل موقف التعجب والانكار ثم يقول ضدان لا يتفقان وقد وهم في ذلك فليس بين القولين مغايرة فالاول ينظر الى صفات في اجزاء الوجود غير التي ينظر اليها الآخرون فاذا اردت ان توفق بين القولين فقل المادة هي القوة والقوة هي المادة فاذا بلغت هذا المبلغ من العرفان فهمت قول قاسم بك امين « العقل والادراك والنفس الفاظ لا تدل على اشياء حقيقية بل وضعت لملكات كان يتوهم وجودها بالذات في زمن كان العلم فيه قاصراً يستمد مادته من الخيال ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعاني الى الفهم . والحقيقة ان البحث العلمي لم يجد في الحياة الفسيلوجية الاخلايا متنوعة قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا اخر» ..

كان الانسان في بدء وحشيته عشي مكشوف الجسم فاقد الحياء ولكن حب التزين كان آخذاً من لبه مأخذاً غريباً فاتخذ اللباس حلية وما زال يخلع زياً ويلبس آخر حتى ظهرت فطنته فاتخذ من اللباس وقاء من الحر والبرد فكان هذا اللباس موري الحياء في قلبه فستر جسمه وغطى على ما يتخلق به من خصال السوء فكأني به وقد تعلم الحياء تعلم الرياء ايضاً فكان اكثر أهل الحياء من اهل الرياء لان الحياء المقبوح يزعهم عن ارتياد الريب امام الناس ولا يزعهم عن مواقعة الرذيلة في السر

كان اقوى الناس جسماً في الزمن الخالي أقدرهم على جمع المال فكان أحسنهم لباساً والقوة معبود الناس فكانوا يجلون لباس القوي من اجل قوته فما زالت بهم الحال حتى أجلوا المرء من اجل لباسه أليس اللباس الحسن

دليلاً على الغنى والمال هو العبد المطواع والرسول اللبيب اذا سرحته سعى بينك وبين الناس بأحسن ما تحب وهو الحجة البيضاء والرأي الرجيح

وبارٍ نمياً بالغني ان للغني لساناً به المرء الهيوبة ينطق

وهو مغطٍ على عيوبك ورافع عن حسناتك الخمول وهو اذا شئت الداء العياء والسم المميت

لقد حبب الجاه الينا اللباس فأحببنا الزينة حباً في الجاه ان الرجل اذا خلع ثيـاب زينته خلع فيها روحه فلا يراجعها حتى يلبس ثيابه ولقد صارت قيمة الرجل ما يتحلى به واذا كنت في ريب من ذلك فانظر الى المثرى يرفل في زينته وأطل عليه وهو في الحمام تر انه خلع عظمته ومجده حين خلع ثيابه

قال شكسبير ثياب المرء دليل عليه ولقد صدق شكسبير الا انها كادت لا تكون ذلك الدليل اما رأيت انساناً ضفا عليه الحرير ورف تحسبه من الملائكة وهو من الشياطين

اثنان احدهما حسن البزة والثاني رثها قد هم الاول ان يبصق في وجه الثاني غير انه رأى ثيابهما تخفي فجأة أتحسب ايها القاريء انه فاعل ما هم به من البصق ـ كلا ـ انه ليخجل ان يبصق على جسم مثل جسمه فالعري منزل الرفيع من سمائه ورافع الوضيع من حضيضه فهو من هذا الوجه مثل الموت أئت بفلاح من صميم الريف وقف به عنـد دكان أستين امام تلك التماثيل ذات الثياب الجدد فانك ترى صاحبك يكاد يحييها لانه يحسب ان حيـاة المرء في ثيابه قاتل الله الثياب لقد كدنا نكون في حياتنا امواتاً وكادت ثيابنـا تكون لنا في ذلك الممات اكفاناً

ينثر الزارع في ارضه الحب ثم يقيم عندها قطعة من الخشب ويضع عليها ثياباً بالية فاذا مر بها الطير كانت له تلك الثياب البالية وازعا عن التقاط الحب لـكان ذلك العصفور اعقل من المتمولين الذين يلتقطون قوت الفقير لا يزعهم عنه تلك الخرق البالية التي تكاد لا تكسو جسمه. أتحسب ان المثل يفخر بازياء الملوك والامراء أليست عظمة الانسان ايضاً مستعارة من ثيابه المستعارة .

ترى الفقير لابساً ثوباً يطل عليك الفقر من كل خرق من خروقه هذه ابواب الحاجة تنفذ منها الى الابصار ايها الغني انك لتحسب ان كل خرق في ثوب الفقير جرح رغيب في عرضه وانك لواهم فانه اقرب الى طبيعة الانسان منك انت تعيش في ثيابك وهو يعيش في نفسه

تقديس النجاح

أن الامة في عصور قوتها مثل الافراد في سني نجاحهم في الحياة تحكم على الاعمال بنتائجها لا بالدوافع التي دفعت اليها ومن اجل ذلك تجد أفراد الامة القوية يقدسون النجاح تقديساً كثيراً وهذ أثر من آثار عبادة القوة لان العمل اذا كانت نتيجته النجاح كان محبباً الى الناس واذا كانت نتيجته الفشل كان مبغضاً اليهم ولا أظن انهم مخطئون في ذلك نعم ينبغي للمرء أن يذكر دائماً أن الدوافع المختلفة التي تدفع الى الاعمال توجد اختلافاً في قيمة الاعمال ولـكن الذي يعين قيمة العمل هو النجاح ولا أعني به ذلك النجاح السريع الذي يعقبه الفشل الطويل والمبني على أساس من الغش والـكذب وانما أعني ذلك النجاح الذي يتخذ له الافراد والجماعات عدته والمبني على أساس صحيح

متين من القوة

فاذا نظرت الى الامم في حين ضعفها وجدتها تحكم على الاعمال بالدوافع التي دفعت اليها لا بنتائجها وهذا ولا شك احساس بالعجز لان الافراد اذا خافوا أن يحكموا على أعمالهم بنتائجها كانت ثقتهم بأنفسهم قليلة كأنهم لا يستحقون ان تكون نتائج أعمالهم النجاح ومن اجل ذلك تجد أفراد الامة الضعيفة يكادون يقدسون الفشل في المطلب الجليل خصوصاً اذا كان نصيبهم لان كل انسان يجل النجاح ويقدسه اذا كان النجاح نصيبه ولكن سواء كان النجاح نصيب المفكر أم كان نصيبه الفشل ينبغي له أن يتذكر دائماً أن قيمة النجاح الصحيح أكبر قيمة في الحياة لانه مبني على قوانين وقوى مثل القوانين والقوى التي بنى عليها هذا الوجود

العامة يكثرون من ترديد هذه الكلمة (الاعمال بالنيات) وهذه حقيقة ولكنهم يخطؤن فهمها ويخطؤن في استعمالها فليس معناها ان النية التي دفعت الى العمل هي وحدها التي تعين قيمته وليس معناها ان هذه النية أهم من العزيمة والصبر والجلد والعلم والخبرة والدهاء والاعتماد على النفس وغيرها من القوى التي اشتركت في تحقيق النجاح واستجلابه . ومن الغريب أن بعض المفكرين يتابعون العامة في الحكم على الاعمال بالدوافع التي دفعت اليها لا بنتائجها والسبب في ذلك أما أنهم يخطؤن معنى النجاح الصحيح وما يستلزمه من القوى الكثيرة واما أنهم يرون ان بعض العاملين ينجحون بالرغم من كونهم اهملوا بعض الفضائل المدنية ثم ان هذه الفضائل تردع عوامل الاعتداء التي في صدر الانسان وتعده لان يتبع سنن الجماعات

وانظمتها ولكن الذي نسيه هؤلاء المفكرون أن النجاح أساسه القوة والقوة مصادرها كثيرة من فضائل شخصية أو مدنية والنجاح يتطلب قوي وملكات وفضائل خاصة ولا يستقيم لاحد الا بها

أن أفراد الامة القوية يتعلقون بوسائل النجاح ولا يحجمون عن العمل خشية الفشل أما أفراد الامة الضعيفة فانهم يحجمون عن العمل خشية الفشل لانهم لا يتعلقون بوسائل النجاح فيكون خوفهم من الفشل داعية الفشل ويرجع ذلك كله الى اهمال وسائل النجاح ولقد يفشل الرجل العظيم وينجح الرجل الضئيل ولكن هذا العظيم على عظمته نسي حقيقة كبيرة وهي ان الانسان لا بد أن يؤهل نفسه للنجاح في الحياة كى ينتفع بمواهبه وينفع بها غيره وقد تجنى على المرء تربيته فانها قد تعده للفشل فى الحياة خصوصا اذا كانت فى نفسه صفات من الصفات التي تجعل نجاحه مستحيلاً مثل ضعف ثقته بنفسه وتوكله على غيره . والحياء المفرط الذي هو فى الحقيقة دليل من دلائل الضعف وقد يتساءل العاجز عن الصفات والقوى التي يستجلب بها النجاح هل هي أجل ما يطمح اليه الانسان وأشرف ما تتصف به النفوس أم هناك فضائل وقوى أعظم منها وأجل ولو بحث هذا السائل لوجد أن الصفات والقوى والملكات التي نجلها فى نفوس الناجحين ونعدها ثمينة نادرة مثل الذكاء أو قوة المنطق والتفكير أو رقة الشعور وجلال العواطف هي رخيصة جداً فى نفوس العاجزين أهل الفشل وهذا ليس بغريب فان المفكر الذي جرع كاس التجارب يجد أن الملكات والقوى النادرة لا قيمة لها فى نفسها بل قيمتها فى استخراجها واستعمالها وما ينشأ عنها من المؤثرات كما ان الجواهر

الكريمة أو المعادن النفيسة لا قيمة لها ما دامت فى بطن الارض بل قيمتها اذا استخرجت وصادفت رغبة فيها اما اذا لم يوجد من يرغب فيها لم تكن لها قيمة فينبغي للمرء ان لا يحتقر تلك الملكات التي تقدر النجاح فى الحياة فان ذمه اياها وهو لا يملكها يكون مثل ذمه عنقود العنب لانه لم تصل اليه يده ثم ان النجاح فى الحياة تختلف مظاهره فقد يفشل المرء فيما يرضاه الناس له من الحياة وينجح فيما يرضاه لنفسه الا ان نجاح المرء فى الحياة يقاس بمقدار قواه سواء كانت مادية او عقلية او روحية

يحسب بعض الناس ان فى تقديس النجاح ظلما وقسوة وغبناً وانك لا تجد احداً يقول بذلك الا اذا خشى الفشل اما اذا كان من الرجال الذين لا يطغيهم النجاح ولا يكرثهم الفشل فانه يجد من ثقته بنفسه وبعمله ما يعينه على استجلاب النجاح وتحمل الفشل ومن اجل ذلك تجد الامم التي تقدس النجاح اكثر جرأة من الامم الضعيفة التي تخشي ان تحكم على اعمالها بنتائجها لا بالدوافع التي دفعت اليها غير انه قد يخشى على الامة الضعيفة اذا جعل افرادها يقدسون النجاح ان يتعلقوا بمظاهر النجاح دون النجاح والتعلق بمظاهر النجاح ليس دليلا على القوة بل على الضعف غير ان التظاهر بالنجاح الكاذب يكون فى الجماعات التي تحكم على الافعال بالدوافع التي دفعت اليها كما يكون فى الجماعات التي تحكم على الافعال بنتائجها غير ان الجماعات التي تقدس النجاح يعلمها تقديس النجاح التمييز بين النجاح الصحيح الذي يتخذ له المرء عدته من القوى المختلفة وبين النجاح الكاذب الذي ليس له نفع ولا بقاء

ان اجل ما تمتاز به الجماعات الغربية على الجماعات الشرقية ان الامم الغربية اكثر تقديساً للنجاح وهذا جعلهم اكثر تعلقاً بالفضائل الشخصية مثل الاعتماد على النفس والعزيمة والصبر والشجاعة وغيرها من الفضائل الشخصية التي هي أهم من الفضائل المدنية والتي هي وسائل النجاح وعدته

خليق بنا أن نعترف بالاثر الذي للدوافع والنيات فى تمييز الاعمال ولكن ينبغي ان نذكر ان القضاء والمقادير لا يهمها الدوافع ولا تعترف بها بل يهمها النتائج وتعترف بها ، نحن نغاير المقادير ونختلف عنها فى شيء وهو ان النيات والدوافع تهمنا فينبغي ان لا نغالط أنفسنا ونخفي عنا قيمتها ولكن ينبغي ايضاً ان لا نغالط أنفسنا ونخفي عنها ان النتائج قيمتها هي القيمة الكبرى واذا كانت المقادير والوجود كله يقدس النجاح فى كل مظهر من مظاهر الحياة فلم لا نقدس النجاح فى حياتنا وأعمالنا

الحياة واليأس

الآملون فريقان. فريق املهم غفلة عن ثقل الحياة وعظمها وبلادة وغباء وفريق يعدون الامل واجباً عليهم وفرضاً فرضته الطبيعة . وانا من الفريق الثاني . ومن اجل ذلك لم يكن املي مستطيلاً مستمراً مستأنفاً لان النفوس تعجز عن ان تجعل الفرض كذلك

يحسب كثير من الناس انهم يعدون الامل واجباً وهم مخطئون فان امل الجمهور غفلة . وهم غافلون عن ان املهم غفلة .لانهم غافلون عن غفلتهم . ومن اجل ذلك لا يفهمون سبب شكوى الاديب من عظم الحياة . ويحسبون

ان ذلك ضعف فيه . ولو انهم افاقوا من غفلتهم ورأوا عظم الحياة كانوا كمن اقام طويلا في حجرة مظلمة ثم خرج منها ونظر في عين الشمس. فتأذت عينه بتلك النظرة فالاديب يشكو الضياء لانه ينظر في عين الشمس. وهم لا يفهمون شكواه لانهم في حجرة مظلمة . ولكنهم يقولون له: انت جنيت على نفسك لم تنظر في عين الشمس ؟ ويحهم اذاً كيف يعرف سر الحياة اذا بقي في تلك الحجرة المظلمة ؟ ولكنهم يقولون هذا غرور منك . والغرور مدعاة الاذى اذا كان الطموح الى منازل العرفان غروراً فلا خير في الحياة. الحياة مثل حمل ثقيل من الذهب على كتف رجل ضعيف : اذا وضعت هذا الحمل على ظهر حمار من اهل الغفلة والضمير النائم لم يحس عظمه ولكنك اذا وضعته على كتف الاديب احس عظمه وجلالته : ان جلالة الحياة هي التي تفزعني وتلجؤني الى اليأس في بعض الاحايين : تلجؤني الى اليأس لاني ارى الناس غافلين عنها وانما يلهيهم اهتمامهم بصغيرات الامور

ترى الصانع يسيل عرقاً من فرط اجهاده قواه فكأنه قصر من الثلج من قصور الشتاء التي يبنيها الروس وقد رماها الصيف بلفحات حره وانك لتكاد تسمع نبضات عروقه البارزة فكأنها تريد ان تفتق جلده فتسعد ذلك العرق السيال الذي يشهد بما يعانيه من الجهد والبلاء وهو تارة يترنم باغاني الوله وأشعار الغرام وتارة يطلق من شفتيه صفيراً يحسبه السامع صادراً من قلب ملأ السرور نواحيه وتملكته القناعة والرضاء بقسمة المقدور ولو فتح له صدر ذلك العابث بالاغاني لوجد احزاناً تنتاب وهواجس تعتور وعواطف تتواثب فما ميدان القتال باعظم هياجاً من قلب ذلك الصانع

كذلك الغني ذو الابهة والجلال تراه في عربته الفاخرة وعلى لباسه رواء يضارع ذلك البشر الذي يجول في انحاء وجهه فيحسده الرائي ولو علم الرائي ان سكينة ذلك المثري مكذوبة وان بين جنبيه قلباً يعاني من آلام المعيشة قدر ما يعانيه الفقير في كسر بيته المتهدم وربما كان الفقير يفضله في انه لا يبالي النعيم اذا ادبر مثل مبالاته اياه لو علم الرائي ذلك لخفض من غلواء بغضه وحسده

ان خاطراً واحداً يمر على ذهن الانسان قدير على ان يفسد عليه نعيم يومه وان حادثاً من صروف الدهر لتكفيل باتلاف حلاوة المعيشة فكيف لا يتمكن اليأس من نفوسنا اذا كانت هذه حياتنا

على ان الانسان مودع فيه ميل طبيعي الى الحزن تغطي عليه الغفلة عن شؤون الحياة واختلالها كما يغطي الرماد وجه النار الكامنة فاذا صحا من تلك الغفلة هاج به اليأس هياج الاسود في اقفاصها وانتزع منه السكينة والاطمئنان وكاد يطفئ مصباح الامل الذي تستضيء به النفس حتى يرى الحياة عبثاً لا مفرقاً بين حالات الغنى والفقر ولا بين المساعي المختلفة والاشغال المتنوعة لانه يحسب ان كل ما يقضي الوقت في معالجته عبث ثم يعتريه الملل والضجر راغباً في عيشة ارقى من هذه العيشة التي يطوف ما يطوف في انحائها ولا يعرف الغاية التي يسعى اليها

كلما بلغ الانسان مبلغاً من العرفان الصحيح باحوال هذه الحياة وكانت عواطفه مهيجة من اجل اختلال شؤونها كان قريباً من منازل اليأس

استعرض النفوس البشرية وارفع عنها ذلك الحجاب الذي وضعه عليها التحفظ والاحتجاز والنفاق والحياء تجد فيها من الدناءة والقسوة والقبح ما

يجعل الشك ينبت في اليقين والقلق في الاطمئنان واليأس في الامل

هذا كارليل الفيلسوف الكثير الثقة بالنفس البشرية ذو الامل الضخم الذي اخرج الينا عقيدة (الامل والعمل) كان على ذلك ينتفض مذعوراً في مجلسه ثم تثور به السوداء فيقول لا ادري كيف عشت هذه السنين وانا لا أعرف ما أنا) يريد بقوله (أنا) النفس البشرية ألا ترى ان الانسان اذا بحث في دناءة النفس وقسوتها وقبحها وكيف ان بعض هذه الاوصاف تأخذها بالوراثة وبعضها بتأثير البيئة الفاسدة وبعضها بسبب نظام التربية الفاسد فيعترض الانسان في بحثه مسائل منها معنى الحياة والسبب الذي من اجله خلقنا والغاية التي نسعى اليها كل هذه مسائل لا يقع عليها الادراك مهما أكثر الناس من القول فيها

من أجل ذلك كان اليأس قريباً من نفوس الشعراء لان عواطفهم أبداً مهيجة مشبوبة وانك ترى الواحد منهم يطنب في تقريظ الطلاقة والبشر والابتهاج والفرح فاذا خلا الى نفسه فارسل ما يثور فيها ترفيهاً لها وجدت ذلك الثائر يأساً صريحاً هذا (وردز وارث) شاعر الطبيعة الذي جعلها كتابه اذا قرأت شعره حسبته الماء الزلال تحنى عليه الازهار ولكنه اذا افرغ ما يثور به صدره حسبت ان هذا الوجود لا صلاح له

وهذا بيرنز الشاعر الذي قال فيه كارليل ان المصائب كانت تصب فوقه فينثرها عنه كما ينثر الجواد الماء عن شعره — هذا الذي اذا شئت كان لي من اغانيه غذاء يفضل الغذاء تلك الاغاني التي لو كانت معي في الصحراء

ما احسست بشؤم الحياة — هو بيرنز الذي يقول (خلق الانسان ليحزن) وهذا بيرون الذي يقول فيه كارليل — لا تحسبوا انكم تقرأون اشعار بيرون وانما تقرأون احزانه — كان لا يستقر في مكان من ملله الحياة وكان اعظم لذاته ان ينفرد في الارض الخلاء فيصرخ كي يسمع صدى صوته اذا رددته الجبال فهو كما قال الحسن بن هاني :

يرى الناس اعباءً على جفن عينه   وان حلّ في وادي أخٍ وحميم
فود بجدع الانف لو ان ظهرها   من الناس اعرى من سراة أديم

فانه هو الذي يقول في قصة دون جوان « لا أرى شيئاً يمنعنا من اتيان جريمة التناسل غير الجوع والفاقة » ذهب في هذا القول مذهب ابي العلاء المعري اذ يقول « هذا جناه ابي عليّ » لشد ما عانت تلك النفوس العظيمة من اليأس اذ كانت ترى في التناسل جريمة شنعاء ووزراً بليغاً

قال احد جبابرة ملوك الرومان وددت لو ان للناس جسماً واحداً فاقطع رقبته بضربة واحدة من سيفي فما اشبه ودادته بودادة ابي نواس فان كليهما يود فناء العالم ولكن الاول يخرج من ودادته سليم الانف لا مثل خروج ابي نواس مجدوعها . قلنا ان اصل تهييج اليأس في نفوس المفكرين الاحساس بدناءة النفوس واختلال شؤون الحياة ولكن اصل اليأس في اكثر الاحايين وقوع الحوادث بما يزعج النفس المطمئنة فاذا لم تكن لها ارادة عظيمة تأسر بها عواطفها غلبها اليأس ولليأس اصل آخر يرجع الى ضعف في همة المرء وتقصيره عن عمل ما تفرضه عليه منزلته في الحياة فاذا احس بخذلان قواه . وما يكون وراء ذلك من الاضرار بسعادته تملكه الحزن

ودب اليه اليأس من كل جانب

اغلاط الحقائق

كلمة ما سارت في اذن الا وخزتها غير اذن من عرف ان كل حقيقة ناقصة حتى تقرن بامثالها ومن اجل ذلك كان في كل صواب شيء من الخطأوفي كل خطأشيء من الصواب (قال فكتورهيجو كل أغلوطةلهاجانبان جانب مشرق وهو الخطأ وجانب مظلم وهو الصواب) وسبب هذا ان الانسان الفرد غير مستقل بذاته ومن كان هكذا كان كل معنى ينتجه ذهنه جزأ من معنى وكل حقيقة يقع عليها جزأ من حقيقة ومن اجل ذلك كان كل شيء في الوجود مرآة لكل شيء وتفسيراً له

كل رأي في أول أمره يطرق طروق الضيف الغريب فمن الناس من يستقبله بالاجلال وهو الذي يرغب في حلاوة الجديد ومنهم من يستقبله بالاعراض عنه والخوف منه خاشياً ان يكون ضيفه مجرماً متنكراً فاذا طال مكث الضيف بيننا يقناه غير ما اخذناه فنعدم اذ عدمنا حلاوة الجدة ذلك الخوف الذي استحوذ علينا من طلعته فان الضيف يكون قد نبذ من عاداته ما نبغض وتلبس بما نحب وكذلك المعنى اذ طال عليه القدم فارق غرابته بأن يفارق اكثره...... لا شيء اكثر افساداً لمعنى جديد مثل معنى قديم

الخطأ يتسرب الى المعنى الجديد من التناقل لانه اذا اراد أمرؤ ان يفهمك شيئاً لم تفهم كل ما يريد أن يفهمك فالتفاهم الكامل لا يوجد بين عقلين متشابهين ولكنه يوجد بين عقلين كل منهما هو الآخر فالتفاهم الكامل

من اجل ذلك مستحيل

كيف يفهم الانسان ؟ ولم يلق المعنى على اثنين متشابهين في مقدار ذكائهما فيفهمان فهماً مختلفاً بعض الاختلاف ؟ أما الفهم فسببه وقوع مايعرض عليك على معان كنت قد اجتنيتها او معان خرجت من توالد المعاني التي كنت قد اجتنيتها فاذا تعارف المعروض والمجتبي تعارفاً قليلاً او كثيراً فهمت المعروض بمقدار ذلك التعارف فاذا تناكرا كل التناكر لم تقدر ان تفهمه ومن هذا تعرف سبب اختلاف فهم اثنين لمعنى واحد فاذا شئت ان تضرب مثلاً من الالوان فقل ان تعارف المعروض والمجتبي في ذهن الاول مثل تمازج الاصفر والاخضر وان تعارفهما في ذهن الثاني مثل تمازج الاصفر والاسود وتستخرج من ذلك ان الحقيقة الواحدة هي حقائق متشابهة فالحقيقة الواحدة في ذهني غيرها في ذهنك بل هما حقيقتان متشابهتان المرء ليس بفاهم كل ما تريد ان تفهمه والمعاني التي يخرجها التفكير خارجة بسبب توالد المعاني التي في ذهن المفكر وهي كما علمت ناقصة فيخرج المعنى المولود ناقصاً والتفكير نوعان تفكير يقدر المفكر ان يعرف كيف خطا وسار وتفكير لا يقدر المفكر ان يتتبع خطواته وهذا النوع الثاني هو الذي يدعونه الالهام فقد يقول المرء كلمة لا يعرف كل معناها غير انه يرى نفسه مدفوعاً الى قولها فاذا وقعت في اذن غيره كانت مفتاح نبه وربما خطر في ذهن أحدنا خاطر لا يعرف كيف خطر فيجتهد في أن ينساه حتى اذا قرأ في بعض الكتب وجده مشروحاً . وروى ان بشارا الشاعر سمع احد الناس يفسر بيتاً من ابياته فأعجبه تفسيره فقال لراويته ارو هذا المعنى لهذا البيت فوالله ما عنيته هذه اشياء بالغة بنا ان نعتقد

ان تلك النفس المودعة في كل فرد هي زي من ازياء روح الوجود ومظهر من مظاهرها ولا يروعك ايها القارئ قائل يقول لو كانت نفوس الافراد مظاهر من مظاهر روح الوجود لكانت كل واحدة أحنى على أختها منها واحب لها .... أليس في نفس الانسان صفات متضادة كل واحدة تهم بقتل الاخرى .... واضرب مثلاً من امثال ما روى عن بشار فاقول اني نظمت منذ سنين هذين البيتين

ما أشبه الحزن بالسرور   وأشبه المكث بالمرور
وما أخال الحياة الا   لجولة الفكر في الضمير [1]

أما شبه الحزن بالسرور فكبير من اجل ان كليهما ميزان للبقاء ومقياس للعمر لان تقسيم الزمن من صنعنا نحن نقسمه الى دقائق وساعات وليست الدقائق والساعات الا ضحكات القلب وعبراته فطول الزمن وقصره غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها ولكنه موقوف على احساسنا بالحياة التي تنبض في عروقنا وشعورنا بما يملأ صحيفة العمر من الحزن والسرور قال ادسون أنكر ملك من ملوك مصر آية الاسراء قائلاً ان مسافة ما بين اول الاسراء وآخره شاسعة والزمن الذي وقع الاسراء فيه قصير فأتاه حكيم من قومه وقال له اني جاعل بينك وبين الشك ستراً من الحجة قال ما حجتك قال أئت بأناء كبير فأتى به فملأه ماء وقال للملك اخلع عمامتك وادخل رأسك في الماء ففعل الملك ذلك فحسب انه غريق تقاذفته الامواج

(١) من الجزء الاول من ديوان المؤلف

حتى رمت به على شاطيء قريب فجعل يمشي فى تلك الارض حتى لقيه اناس فاستجداهم فرحموه فى غربته واخذوه وآووه وزوجوه من قومهم فتاة فلبث معها سنين وولدت له ابناء حسان الوجوه ثم خرج يمشي على شاطيء البحر فتذكر ما كان فيه من العز والسلطان فأسف على حياته الماضية وذكر ان ضياع سلطانه كان من احل انكاره آية الاسراء فقال صل لله ركعتين عسى ان يقبل منك التوبة ويرجعك الى ما كنت فيه من جلالة الملك فخلع ثيابه ونزل في البحر ليغتسل ويتوضأ ولكنه لما رفع رأسه وجد نفسه في وسط اتباعه وعساكره والحكيم بجانبه والاناء أمامه فسأل الملك اتباعه كم سنة غبت عنكم فتعجبوا من قوله وقالوا انك ما لبثت ان وضعت رأسك في الاناء حتى رفعته ولم تغب عنا فنظر الملك الى الحكيم وقال صدقت هذه ابيض الحجج وانما ذكرت هذه القصة لتعرف ان طول الزمن وقصره غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها

ان الزمن في عصرنا هذا يعدو عدواً بعد ان كان يمشي برجل عرجاء في العصور الغابرة لان الحركة الحيوية الآن اسرع منها في القرون الغابرة فاذا تفهمنا الصواب علمنا أن يوماً من ايامنا اكبر من يوم من ايام آبائنا لاننا نعمل في يومنا ما لم يعمله الاولون في ايامهم . كم خطرة من خطرات النعيم والشقاء تمر علينا لا كما تمر الريح المكسال بل كما يمر السهم يشق الهواء شقاً وكم خطرة دونها خطرات منتجات خواطر أخر . هذه حياتنا حياة كانها محمومة من اجل ان نبضاتها سريعة واذا شئت ايضاً قلت ان يوماً من ايام آبائنا الاولين اكبر من يوم من ايامنا لاننا نعمل اكثر

مما كانوا يعملون في يومهم وكثرة العمل تلهي المرء عن ان يحس طول الوقت فاذا نظرت الى هذين الرايين نظراً صادقاً علمت شبه المكث بالمرور

لم يخطر بذهني وانا اكتب هذين البيتين هذه المعاني بل كنت انظمهما وفي الذهن معنى اقرب غوراً . وانما ذكرت هذين البيتين لاقول ان المرء قد يقول قولاً غير فاهم منه الا جانباً من جوانبه

ومن دلائل روح الوجود ان المرء قد تملكه الفكرة في اظهارها الهلاك فيريد ان يغلب نفسه عليها فلا يقدر

وما معنى النهضات والاضطرابات واندفاع الناس بدافع عنيف من دوافع الاراء والعقائد هذه الحجج ليست احلاماً ولكنها ايضاً ليست بالتفكير الذي جعله الماديون من افراز الروح

كلما قرب المعنى الى الصواب بعد عن اذهان الجمهور فاذا اردت للمعنى ان يكبر بأن يردده الناس صغر بان يصير لفظاً ميتاً فأن في هذا الموت حياته بين الناس وهذا سبب ان النظريات والكلمات العامة التي تملأ افواه الناس اكثرها فاسد عليل المعنى وجمهور الناس كالنساء

فاذا شئت ان ترضي النساء فلا تسمعهن غير ما يردن ان يسمعن

فالحقائق عند العامة مثل الدنانير اذا مزج عنصرها الكريم بعنصر غير كريم (كالنحاس) كانت ابقى على الزمن منها وهي من الذهب المحض وكذلك الحقيقة اذا مزجت بشيء من الخطأ كانت ابقى على الزمن وان من المفكرين من يذهله خوفه من الناس عن رأيه حتى يدخل عليه وهو لا يدري من الخطأ ما يجانس بينه وبين افكارهم ... اثنان قد ينظران الى

الحقيقة من وجهين كل يزعم ان اخاه مخطيء وهو مخطيء في زعمه مصيب في نظره الي الحقيقة من ذلك الوجه فلا غرو اذا وجدت معنيان متضادان وكلاهما مصيب راجح ومثل ذلك ان يقول قائل ان سبب احتقار المرء الحياة ان الحزن من ضياع شيء كان مالكه والخوف من ضياع شيء هو مالكه سيان اي ان الخوف من زوال النعيم يفسد النعيم ويذهب به وقد يناقضه آخر فيقول ان نعيم الحياة مستجاب من خوف الانسان من زوال النعيم لان ذلك الخوف يدفعه الى التذاذ النعيم اكثر من التذاذه اياه لو كان ذلك الخوف من فقدانه غير متملكه فالاول يقول ان ذلك الخوف يفسد النعيم والثاني يقول انه يزيده ويصلحه وكلا الرأيين مصيب وانما تأثير الخوف يختلف مثل اختلاف طبائع الناس ... اذا تعرفت الصواب علمت ان كل مجادل في اكثر الاحايين غير فاهم ما يعنيه مجادله فيجتهد كل واحد في ان يبين عن فساد رأي لم يره مناظره وربما كان صاحب الرأي غير فاهم رأيه فهما كاملاً واني اكاد أقول بانه يستحيل على المرء أن يفهم رأيه فهما كاملاً فانه ليس بغريب ان يخفى عنه اكثر جوانبه

فالحقيقة الواحدة لها ازياء كثيرة تختلف مثل اختلاف نظر المرء الى الحياة أليس في الناس عابد الخرافات والاوهام وعابد الحاجة والفهم أليس في الناس المادي والشاعر عابد الجمال أليس في الناس غير هؤلاء فرق كثيرة كل واحدة تنظر الى الوجود نظرة تصبغ اشعتها صبغة في النفوس . لا عجب اذا لبست الحقيقة الواحدة من الازياء المختلفة ما يجعلها حقائق كثيرة وانما ينسج تلك الازياء اساليب التفهيم والاعراب عما في النفوس ومن اسباب اختلاف

ازياء الحقيقة ان الانسان قد يبلغ منتهى الاجادة بأن يضع المعنى في اسلوب صادق كاذب ومثل ذلك قول جويتي ان الانسان لا يسمع غير ما يفهم. هذا هو الاسلوب الصادق الكاذب . هو في الحقيقة نوع من انواع المبالغة وعلى ذكر المبالغة اقول ان اكثر امور الحياة مبني عليها ولكنها انواع بعضها يصلح الحقائق كالذي يعتمد عليه الشاعر في تفسير الحقائق النائية الغامضة فوظيفة المبالغة التي يعتمد عليها الشاعر مثل وظيفة المنظار المكبر غير ان المغالاة تلحق بالصواب شيئاً من الخطأ وسببها الالحاح في الدفاع عن رأي كثر منكروه أو جاهلوه ... خرج جان جاك روسو الى الحياة في بيئة كل شيء فيها متكلف وكان التصنع يجول مجالاً عجيباً في احوالها . ونسي الناس قوانين الطبيعة وما ينتجه العقل من تفسيرها فكانت حياتهم جريمة كبيرة قال روسو بوجوب الرجوع الى العقل فيما يسنه من اوامر الطبيعة . قال بوجوب ترك المرذول الذي تسنه السلطة والخضوع لهذه السلطة ولكنه دار بعينه فرأى أناساً بعيدين عن هذه الحقيقة وأن صوت المغالات أقدر على ايقاظهم من صوت الحق فكانت المغالاة موقظة لقومه من غفلتهم ولكنها كانت مفسدة اكثر مبادئه غالى روسو في تقريظ الطبيعة حتى قال ان كل شيء يخرج منها حميد ونسي ان آباءنا الذين كانوا أقرب اليها منا قد ضرهم قربهم منها في كثير من الاحوال . من أين تأتي المرء تلك الدوافع التي تدفعه الى الشر . أليس من الطبيعة

انظر الى عيشة الاولين ترها قطعة من الدم .... ارأيت كيف ان المغالاة تفسد الحق انظر الى بودلير الشاعر الفرنسي تر رأيه نقيض رأي

روسو ولكنه مثل روسو من اجل ان المغالاة أفسدت رأيه واذا شئت فقل جعلته حقيقة مغلوطة قال بودلير انظر الى الاطفال الصغار تر فيهم من الانانية والقسوة والزهو ما يثبت ان الطبيعة ليست كما قال جان جاك روسو خالصة من الشوائب ولكن بلغت ببودلير المبالغة مبلغاً بعيداً حتى قال ان كل شيء يصدر من الطبيعة خبيث وانه ينبغي ان نعصى كل امر او نصيحة لها . زعم ان الطبيعة قبيحة فينبغي ان نحليها بما تمليه علينا الفنون واستشهد في اثبات قبح الطبيعة بأن المرأة من نساء المتوحشين ترى من العار ان تخرج الى الاسواق غير موشومة الجسم وان اهل المدنية كذلك قد اتخذوا من الفنون سلاحاً يحاربون به الطبيعة وقد نسي بودلير ان ذلك السلاح الذي نحارب به قبح الطبيعة مأخوذ من الطبيعة

من الحقائق التي هي اغلاط ايضاً نظرية في علم الحساب وهي ان ثلاثة رجال هم ابداً ثلاثة رجال اعطهم عملاً يعملونه وسل علماء الاقتصاد هل هناك ربح ناتج من اشتراكهم في العمل ومن تفرد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل فيقول علماء الاقتصاد نعم هناك ربح في مادة العمل وربح في الزمن وربح في المال وربح في ان يتقن كل واحد ما يتفرد به من فروع العمل فثلاثة رجال في حين انفرادهم هم خمسة رجال او ستة رجال في حين اشتراكهم في العمل وتفرغ كل منهم لفرع منه. ثم واجه بهذا القول علماء الحساب يقولوا لك ان ثلاثة رجال هم ابداً ثلاثة رجال ثم واجه بهذا القول العلامة راسكن يقل لك ان ثلاثة رجال في حين اشتراكهم وتفرد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل اقل من رجل واحد لان ما يخسره العامل من ذكائه وملكات عقله بسبب انفراده بفرع

واحد من فروع العمل (مثل صنع رأس دبوس) أكثر مما يكسبه المتمول من المال ....

يقول علماء السياسة بصيانة حقوق الفئة الكبرى من الامة من غير اضاعة حقوق الفئة الصغرى ولكن اذا تضادت مصالح الفئة الكبرى ومصالح الفئة الصغرى ولم يمكن حفظ مصالح الفئتين فهم يقولون باضاعة الفئة الصغرى حفظاً لحقوق الفئة الكبرى. هذا عدل وهو غير عدل هذا صواب وهو غير صواب هذا خطأ وهو ليس بخطأ ....ماذا تقدر ان تقول غير ذلك

الذي دفعني الى كتابة هذه المقالة انه يغيظني ضيق الفكر الذي يبديه كثير من الناس فى النظر الى الحقائق هم يظنون ان الشيء اذا كان صواباً فليس به شيء من الخطأ وسبب ذلك صلابة فى الرأي خارجة من قلة اختبارهم امور الحياة اختبار المفكر الباحث ومثل هؤلاء اناس يقولون ان الشيء اذا كان شراً فليس به شيء من الخير وانه اذا كان خيراً فليس به شيء من الشر ولكن أمور الحياة ليست كذلك وكما ان السم وهو شر جزء من الدواء وهو خير كذلك امور الحياة تمتزج الاضداد فيها هذا مفتاح الحياة ومن عرف الحياة كان اكبر من الحياة فان عرفانه الحياة يملأ صدره حزماً وبصيرته صفاء

المثل الاعلى

كلما بلغ الانسان مبلغاً من العلم زعم انه وصل الى الصميم من دائرة العرفان حتى اذا تعداه البحث الى ماهو الصق بالحقيقة منه زعم في الثانيـة ما زعم في الاولى ولا يزال يأخذ الجديد من الامر مأخذ الاشرف لانه مما

تكون له مهابة في النفس وحلاوة تعلو به عن حقيقة قدره ولئن تكثرنا بما انتهينا اليه وانتهى الينا من صنوف العلم وابوابه فلا نزال نخبط منه في طريق عذراء ونركب مركباً غير ذلول وانما نعني ما يرجع منه الى معنى الحياة وما ينبغي ان تكون عليه

فاسأل النابغة القدير والحكيم الاديب عن مبلغ علمه وماوصل اليه من الحقائق ثم اعرضها على غيرها ترَ ان منها ما يكذب بعضه بعضاً فتكاد تحسب ان الحق موصول بضده ومردود اليه وانه يختلف كما تختلف الغرائز وتكاد تحسب أن الحق في الشرق غيره في الغرب وانه في الشمال غيره في الجنوب

انظر الى مسألة من تلك المسائل التي لاكها البحث ثم نبذها على غير جدوى اللهم الا صيحات تتبعها نزعات ونزعات ترددها افواه الباحثين وقلوبهم تجد انها قد مضى عليها الدهر وتوارثتها الايام وتلقفتها العلماء وهم مختلفون في انحائها كما كانوا والزمان على غير هذا الوضع

ثم دع هذه وانظر الى اخرى استقر الباحثون في اصولها واخذوها مأخذ الحقيقة وعاشوا بها زماناً حتى كان اناس غيرهم فوجدوا فيها من الباطل ما لم يجده الاولون

وانظر الى اخرى كانت حقاً معظماً عند قوم فصارت باطلاً مخذولاً عند آخرين ثم عادت كما كانت في أول امرها تجد ما يمكن الشك من قلب الباحث ويضع امر هذا الوجود موضع الريبة لولا أنا نتهم انفسنا بالتشيع الى ما تتبجح به من مذاهب العلم ووسائل العرفان ووسائط التهذيب لان الفساد يكمن في خلالها ثم يسطو على الرأي فيجعل السقيم صحيحاً والصحيح سقيماً

وقد اصبح العالم بين الناس من لم ينته اليه من العرفان الا ما كان نائياً عن النفس وما تحتويه من عواطف وآمال واغراض

على اننا لو انصفنا انفسنا لعلمنا ان الادراك لم يقع على كثير مما نزعم اننا ندركه وانه موصول بما تمليه النفس من الآمال والرغائب

ولو اننا تعرفنا الصواب من حيث ينبغي ذلك لحمدنا مغبة البحث بعد هذه الاجيال الطوال ولكن صرف الناس عن ذلك انهم اخذوا المادة مأخذ العنصر الاشرف فصاروا يتعرفون حالاتها وسبب ذلك انهم خرجوا الى الوجود وهم يجهلونه فلفتت انظارهم المادة ومناظر اعضائها. فاختطفت بهجتها النواظر واجتذبت القلوب فكانوا كلما بحثوا عن شيء او نظروا الى امر اتبعوا خواطرهم ما وراء ذلك من الربح المادي والفائدة التي زعموا انها كفيلة بتهذيب حياتهم وتنظيمها

ولكن للبحث طريقاً اشرف غاية وهو ان ينظر الفكر الى ما وراء ذلك من الصلة التي تجعل بينه وبين الخلق الحميد سبباً يكون مصدره النفس ولا يستقيم ذلك الا اذا نظرنا نظراً صادقاً في تاريخ النفس وأحوالها وأطوارها وما يصدر عنها من الاحساسات التي تملأ صحيفة العمر اقوالاً واعمالاً ثم نأخذ من هذه ما هو كفيل بتهذيب نظام الحياة

فمن تلك العواطف التي يجب ان نعرف تأثيرها في الحياة وننتفع بذلك عاطفة اجلال العظيم الجليل الحسن من امور الحياة التي تكفل تهذيب نظام الحكومة ونظام الاهل ونظام الصداقة ونظام الحب ونظام العلم ونظام العمل وغيرها مما يتشعب منها ويتصل بها

ونذكر الان معاني تلك العاطفة وهيئاتها التي تتلبس بها ومنازلها من النفس ومآخذها من القلب فان لها من اللباس وهي في صدر الشاعر غير ما لها وهي في صدر الحكيم لان كل واحد ينظر اليها ومن وراء ذلك شيء يعين وجهة النظر

ان حب الحسن الطيب آخذ من قلب الشاعر مأخذاً بليغاً لانه ممتزج بيقينه . والنابغة الحكيم لا يرى اليقين الا فيما كان مصدره الرغبة في الحق والعالم المهذب لا يرى استقامة الا بما كان مرجعه الى توقير الحميد من الخلق والجليل من الامر فاذا اخرجنا هذه المعاني عن ازيائها ازددنا يقيناً في ان المثل الاعلى جماع تلك المعاني لان الحب والاجلال والتوقير هي المعاني التي تضمرها مراتب العبادة ولكن العظمة والحق والحسن أشياء مقرونة في قرن فاذا نظرنا الى الوجود علمنا ان كل أجزائه ازياء لتلك القوى الخفية التي ملؤها الحق والحسن والعظمة والتي لا نشعر بها الا من حيث اتصالها بالحواس والاحساسات

بين الامر الحسن الجليل وبين القلب صلة اصلها تلك النغمة التي يحدثها وقوع القلب على ذلك الامر وهذه الصلة تختلف باختلاف العوامل التى تدفع القلب اليه

وليست تلك الصلة الا ذلك الشعور الذي يدعونه حباً أو توقيراً أو اجلالاً أو عبادة وانما هذه المعاني مراتب من مراتبه تختلف باختلاف العوامل التى تميل بالقلب الى الامر الجليل فاذا كانت الصلة شريفة السبب عالية النسب كان ذلك الشعور خليقاً بان يدعى بما هو اكثر دلالة على الفناء في شخص المعبود

ولا تحسب ان مظاهر الروح تختفي في عصر من العصور فلم يكتمها ان ذاعت المذاهب التي تفسر الكون تفسيراً مادياً كأنما الكون لعبة في يد الفلاسفة يحلها ويربطها الواحد منهم لابنه ويريه خفاياها وسر تركيبها وصنعها فان هؤلاء الفلاسفة قد رفعوا شأن المادة وبينوا ان لها نظاماً وسنناً وان العقل البشري مظهر من مظاهرها ونتيجة من نتائجها وهذا صواب ولكنه لا ينفي عنها وحدة وروحاً وقد فاتهم ان العقائد وغيرها من مظاهر الروح التي تغرى المرء بالسمو الى مراتب المثل الاعلى سنة ايضاً من سننها وان طموح النفس الى الجميل والجليل وكفاحها في سبيل ذلك المثل مظهر من مظاهر سنة النشوء والرقى فمن الناس اليوم من يتخذ الاشتراكية عقيدة ومنهم من يتخذ التهذيب وتكميل الفرد ديناً والسبب في ذلك ان النفس لا بد ان تبلغ الرضا بما يستنبطه العقل من معاني الحياة واسبابها وان استعصى ذلك ولا بد ان تصيب مخرجاً لها ومجالاً لقواها في الحياة

الصيف

هو برء من العشا وشفاء من الكبر[1]

لكأن نفس المرء تعظم في الصيف حتى تملأ الفضاء وتختفي في الشتاء اختفاء الازهار وكما يخيل للمرء ان سماء الصيف اسماً وابعد من سماء الشتاء كذلك يخيل له ان سماء نفسه في الصيف اسما وابعد شأوا ويخيل له انه اذا مد يده قبس الحياة من الضياء والنسيم ويحس كأنه ينتشي من حرارة الشمس

(١) من الجزء الرابع للمؤلف من قصيدة (حديقة الصيف)

كما ينتشي الزهر منها وكأن المرء يعيش اياماً كثيرة بالصبر والاحتمال حتى تتاح له ساعة تحسر له الطبيعة فيها عن جمالها وان من عاش السنين ولم يرو من محاسنها كان كأن لم يعش

نرى الازهار في الصيف ناعسة كأنما اناها طرف الشمس باقتدار لحظاته ان محاسن الطبيعة تسحر النفس حتى تتضاءل بلاغة الرائي وحتى يعرف من نفسه العي والعجز فانها تبيح من جمالها ما يبيح الوارث المسرف من ماله وما تبيح الخليعة من محاسنها فيحس المرء لذة في رؤية اشعة الشمس نائمة منطرحة على الارض كلذته في رؤية الحسناء المنطرحة على فراشها ويشم النسيم كأن النسيم يحمل نفحات اشعة الشمس المذهبة وكأن الشمس زهرة تبيحه عطرها وكأنما حفيف الغصون ذكرى الماضي او كأنما هو صوت ينادي المرء من عالم آخر او هامس يهمس في اعماق نفسه وكأنما تلك الغصون قلب دائم الخفقان

في الصيف يحس المرء كأنه طائر يهم بالطيران فيتشبث بالاشجار خشية ان يطير

هل في ضمير ذلك الغدير الذي كان لنا زمناً ينبوع الحياة ذكرى الاوجه التي تقاربت على وجهه وتحابت ونظرت فيه لترى خيالاتها يقبل بعضها بعضاً هل في ضمير ذلك الغدير ذكرى تلك الاوجه والايام فكم رأينا عنده اشعة الشمس تنفذ من خلال الاشجار كأنها فراش على وجه الغدير وكانت تضيء كما تضيء الذكرى في ليل النسيان فتجلو وجوه السنين الماضية وكأن تغريد العصافير تغريد الامل في النفس وفي بعض الاحايين كانت تغرد العصافير وهي مختبئة في الاشجار كأنها افواه الاشجار الصادحة

(فشدو الطير صوت فم الربيع [١])

ان اعظم لذة يقتبسها المرء من الازهار والغدران والنسيم هي لذة الاحلام فيحلم بحياة سعيدة كحياة الازهار حياة يشم منها نفحة الزهر ويسمع منها تغريد العصافير ويرى منها اشعة الشمس. والازهار هي عيون الطبيعة يذوب امامها روح الرائي كما يذيبه سحر عيون الغيد وانما يشجونا الصيف لان انفاسه مثل انفاس العاشق اما الخريف فانه يبعث الى التفكير لان ازهاره تتناثر كما تتناثر لذاتنا البائدة وايامنا الخالية واحبابنا الذين طوحت بهم عواصف الاقدار

في الصيف احسب الشمس باباً يلج المرء منه الى الفردوس واحسب الروض ثغرة يطل المرء منها على الخلد وارى الماء في الغدير فاحسبه ماء الحياة الذي اسمع عنه في قصص العجائز وكأن الخلد في جرعة منه وكأنما الضوء تبر منثور او غدران صافية الاديم والضوء شعر الطبيعة موقعه من البصر موقع الالحان من القلب ويعجبني سطوع الشمس على الوجه الجميل لانه يذكرني سطوعها على الفاكهة والزهر

في الصيف يخيل للمرء ان للدهر صوتاً وفماً وان لكل شيء منطقاً وكأنما روحه قد الهمت لغات الكائنات

الصيف حلم جميل من احلام الطبيعة تحسب في الصيف ان صانعاً صبغ الوجود صبغة جديدة فتلمس الزهر ثم تنظر في يدك لترى اثر طلاء لونه الجديد ويخيل لك في الصيف ان الروح بركة صافية تنطبع فيها صور الحياة كما تنطبع صور الروض في غدرانها وان الوان الصيف كؤوس مثل كؤوس

«١» من شعر المؤلف

الرحيق ينتشي المرء منها كما ينتشي من الخمر المعتقة اما في الشتاء فان جفاء الطبيعة وجيع مثل جفاء الاحباب والجمال ضياء السعادة وزهرها فانه ينسي المرء الشقاء والشر حتى يحسبهما حلماً من احلام النوم فيكاد لا يرى للشقاء والشر سبيلا الى هذه الطبيعة التي يبصر جمالها كأنما هي منى النفس التي تنشدها

وان المرء لينظر الى محاسن الطبيعة في الصيف كأنه نقل الى عالم مسحور كان يحلم بمحاسنه فالصيف هو شهوات السمع والبصر بل هو شهوات النفس والحس تصغي الاذن فيه الى شدو الطيور قبل ان تتغنى وتتطلع العين الى الزهر قبل ان تراه وينشق الانف نفحاته قبل ان يحملها النسيم اليه تلك النفحات التي تكاد تصبغ النسيم بلون الزهر وتكاد كل نفحة تكون زهرة تلمسها اليد وكما ان السماء ترتسم على صفحة البحر كذلك تريق السماء لونها على الزهر فاذا كانت السماء مشمسة كان الزهر مثلها واذا كانت داجية كان داجياً واذا كانت مقمرة كان الزهر مقمراً

تفلت النفس من رق مشاغل الحياة كي تلتذ الصيف فهي كالعصفور الذي يفلت من يد الصبي الذي يعذبه فلا يفلت من الخيط الذي قيده به فاذا طار وقع على قرب فلا يلتذ انه طليق ويخشى في كل طرفة ان يأسره معذبه فآه لو كانت الحياة فرحة وعرساً او حلماً لذيذاً من أحلام الصيف والسعادة ولكن مشاغل الحياة لها في عنق النفس قيد من خيوطها مثل خيط الطفل في عنق الطائر

ويخيل لك في الصيف ان عصافيره المغردة خارجة من صدرك وانها اشجانك واماني نفسك ويخيل لك انك ترى في انغام الطيور شيئاً من

السماء والماء والازهار ونفحاتها والرياح ونسماتها والشمس واشعتها وكأن سمو الطيور موقظ في نفسك الرغبة في السمو فتود النفس لو تسمو كالطيور حتى تسامي النجوم التي هي طيور السماء ثم تتعداها الى ما وراءها وتظل النفس تسمو الى الابد

جنة الادباء

كنت يوماً اقرأ رسالة الغفران التي صنفها المعري فجلبت لي النوم قراءتها فرأيت في الحلم جنة مثل الجنة التي يصفها وفيها الادباء والشعراء

رأيت أديباً لا اعرفه يتلو على طلابه درساً في خيال الشاعر وسنن الطبيعة فسمعته يقول ان التماس معرفة سنن الطبيعة يكسب الشاعر دقة في التمييز ويجلب له حسن الذوق في اختيار المعاني والتفريق بين الخيال السقيم والخيال الصحيح وهو أيضاً ينمي صحة المنطق في اشعاره ويكون باعثاً لان يخفض الشاعر من غلواء المغالاة بأن يعلمه جلالة البساطة فان مظاهر الطبيعة تفتح للشاعر باباً من الخيال يغنيه عن تطلب تلك الاوهام التي تسلك في باب المغالاة والتماس معرفة سنن الطبيعة ينمي عاطفة تقديس مظاهر الوجود وذلك يفيض على القلب طهارة ويجعل في الروح سعة لان تفهم أسرار الحياة ومعانيها وهو أيضاً يزيد خيال الشاعر صحة فيكون سموه مثل سمو النسر يعلو ولكنه اذا رمى الارض بلحاظه أصابها بها فهو بعيد السمو بعيد النظر فيجمع الشاعر الذي يلتمس عرفان سنن الطبيعة بين سعة الخيال وصحة المعنى ويكون خياله مكتسباً من صدق النظرة لا مثل خيال معالج المغالاة فان خيال

هذا مكتسب من كذب النظرة أليست المغالاة نظرة كاذبة ولكنه لا يسلك في باب المغالاة المذمومة ما يقوله الشاعر عن لسان من بدهه خطب أو كربه حزن أو ما يقوله أيضاً عن لسان عامي النفس فان هؤلاء يلجؤن الى المغالاة بحكم الطبيعة للتعبير عن عواطفهم وآرائهم

ثم أبصرت ابا زيد السروجي يلقي درساً في الترادف ويقول كلما عظم التفكير بين الادباء قل الترادف والسبب في ذلك ان كل مترادف يأخذ معنى لم يكن له قبل لان ذلك من دواعي التدقيق في البحث وراء المتشابه والمتناكر من المعاني وخير للمترادف ان يسد حاجة من حاجات التفكير بدل ان يعيش مقبوراً في كتب اللغة وسيكون للترادف نفع جليل فيحد ما كان غير محدود من المعاني ويلبس المعاني الجديدة ثياباً جديدة ويزيل ذلك الابهام الذي يجعل المتناكر من المعاني متشابهاً والمتغاير متعارفاً ويعوق الاديب عن التفكير الصحيح

ثم أبصرت صديقاً من الادباء المعروفين اعهد فيه الشذوذ يلقي على الطلاب درساً في فلسفة الشذوذ فسمعته يقول

الشذوذ عنوان العبقرية ودليل على سعة في الروح فان ضيق الروح لا يرى الصواب الا فيما تسنه العادات ولكن واسع الروح يرى ان الصواب كثير المنازل ويعرف من منازله ما لا يعرف قتيل العادات والشذوذ ايضاً دليل على شجاعة المرء فان الجبان يخشى ان يرتاد مظان الشذوذ جبناً فلو انه كان عزيز النفس لرأى ان في بعض الشذوذ خلاصاً من الضعة وانتصاراً لجلالة النفس والضمير الحر فاذا رأيت امة ذليلة كثر بينها

أهل الشذوذ الذين يجرؤون ويقدمون الذين لا يبيعون جلالة النفس بالخفض والجاه الذين ينصرون ضمائرهم باعزاز انفسهم الذين يعرفون ان العادات مظاهر الحق والباطل ولباس الصدق والكذب الذين لا يخشون الداء والفقر والجوع والسب والاحتقار والخمول في نصرة الحق اذا رأيت امة ذليلة كثر بينها هؤلاء فاعلم انها امة عزيزة

ثم اخرج من ثيابه رغيفاً فجعل يأكله فكدت ابكي فرحاً من جرأة هذا الجريء ثم قلت له أصحيح انك تحتقر الحياء فقال اني أريد أن ارفع عن النفوس حجاباً من الحياء الكاذب فاجلوها مكشوفة الجسم ولكني اجلوها في زي طفل صغير والطفل اذا كشف جسمه ملأنا ضحكاً ولم يملأنا غضباً ثم رفع يديه وقال ايتها الآذان العفيفة اني لا أتلو عليك غير ما يحدثك به ذلك الهاتف الذي يهتف من اعماق الروح فاذا ابتلاك اللجاجة ان تنزليني منزلة الطبيب الذي يصلح سقم المريض فيعطيه من الصحة والعافية ويأخذ من دراهمه فانزليني منزلة الطبيب الذي يأخذ من صحة المريض ويعطيه أجرة اتلاف جثته أليس هو خيراً من ذلك الطبيب الذي يتقاضى المريض اجرة اتلاف جسمه وجعله رمة بالية

فتركته وجعلت امشي حتى رأيت فلاناً الشاعر يلقي على تلاميذه درساً في مستقبل الشعر فسمعته يقول الشعر عند كثيرين من شعراء اليوم مثل اناء حلية يضعونه في بيوتهم زينة لها او كفاكهة الجص التي ليس لها نفع ولكنه عند العبقريين اناء منفعة يستعملونه في الحوائج أليس اناء الحاجة خيراً من اناء الحلية وسكت قليلاً ثم قال ألم تسمع في قصص العجائز ان ساحراً اسر

فتاة حسناء وحبسها في قصره واعطاها مفاتيحه ولكنه حرم عليها ان تقرب غرفة من غرفه وانها ترقبت غيابه حتى اذا غاب عن القصر فتحت تلك الغرفة فرأت فيها من بنات الملوك عدداً كبيراً وكان قد احبهن ذلك الساحر فاسرهن واحدة فواحدة ولما ملهن سحرهن وجعلهن في هذه الغرفة فعلمت الفتاة انها لا محالة سائرة الى حيث سرن .... الى آخر هذه القصة ... انه ليجول في خاطري ان تلك الفتاة هي الشعر في هذا العصر وان ذلك الساحر هو غول التقليد والعجز والجبن الذي حرم على الشعراء ان يقربوا المعاني الكريمة التي سحرها وحبسها . انظر الى الشعراء كيف يبغضون كل من كان حر الذهن حر الرأي فاذا سلك بينهم طريقاً عذراء قالوا ما هو الا خابط ليل قد اضل طريقه قلت صدقت قال ولكن الشعر يأبى ان لا يرى جوانب الحياة وينظر في تلك الغرفة المحرمة ليرى ما بها من المعاني الكريمة الابكار

ثم مررت بالسيد عصفور يلقي على سامعيه درساً في فن الغناء فسمعته يذكر للغناء تعريفاً بليغاً كان بودي ان اذكره ولكن منع من ذلك انه يقال ولا يكتب لان كله صياح

ثم رأيت على قرب تماثيل عارية فقربت من بعضها وكان تمثال عطارد فقلت له ما تستحي ان تخرج الى الناس عاري الجسم فقال على رسلك اما والله لقد كدتم تنسون ان الانسان خلق عرياناً وصرتم تعيشون في ثيابكم بدل أن تعيشوا في انفسكم ولم يبق ينكم غير هذه التماثيل توقظكم رؤيتها من غفلة المدنية وذل العادة وتخرج من قلوبكم ذلك الجبن الذي مكنه الجهل منها فكيف تستحون من رؤية اجسامكم وانتم لا تستحون من موافقة

الرذائل فقلت اعوذ بالله هذه بقية من بقايا الوثنية فقال يا قتلى المظاهر واهل
الرياء انما الحياء هو اباء المرء ان يعاقر الرذيلة واما ذلك الحياء الذي يمنع المرء
عن التماس ما يفك عنه قيود العادة فهو مثل الحمرة التي تصبغ بها الهلوك وجهها
لتخفي ما بقي من الحياء الصادق . وكان تمثال الزهرة قريباً منا فلما سمعت
حديثنا قالت ليس الجمال ضعفاً ولكنه قوة للامم تزيدها رغبة في الحياة
فتلتمس اسبابها وتستفز قواها رغبة في التمتع به وانما الضعف يتسرب الى الامم
من رغبتها عن بعض انواع الجمال وليس التعلق بجمال الاجسام وجمال الفنون
عائقاً عن الرغبة في جمال الخلق وجمال العلم وجمال القوة فان انواع الجمال مثل
أصابع اليد يعين بعضها بعضاً وليس جمال المادة وجمال اشكالها بمخفوض الشأن
اذا عد انواع الجمال فلولا جمالها لكانت الحياة حملاً ثقيلاً فالجمال أجل نعمة
انزلها الله على الناس ثم ان بين جمال الخلق وجمال الجسم صلة والدليل على
ذلك ان رؤية الجمال تهيج في القلب عواطف الرحمة والكرم والرفق . ان
لذتنا في الجمال تفك عنا اغلال العادة لنعيش في اسر الطبيعة ولكن جلال
الجمال يفك عنا اغلال الطبيعة لنعيش معها فلذة الجمال هي نشوة الحرية ولكن
جلال الجمال صحو من تلك النشوة . ثم تضاحكت وقالت هيهات ان تأخذوا
من الفكر الحر بنصيب وانتم تخشون من الزلل في الرأي أن يأتيكم
من طريق الفكر الحر ولو افقتم من غفلة العجز لعلمتم ان اغلاط كتاب الغرب
التي سببها استقلال في شخصية الكاتب اجل واحسن من اغلاط كتاب
الشرق التي سببها التقليد والجبن . كانت تقول ذلك وهي تسخر فغضبت
ورفعت هراوتي لاضربها بها فانتبهت من النوم فزعاً من اجل ألم شديد في

قدمي اليمنى فعلمت اني ضربت بها الحائط وانها كانت هراوتي التي رفعتها في الحلم لأضرب بها الزهرة ربة الجمال

قتلى المظاهر

قال المتنبي

خير الطيور على القصور وشرها　　يأوى الخراب ويسكن الناووسا

وكذلك الصفات احسنها ما كان حلية النفس العظيمة وأقبحها ما تخلقت به النفس الضئيلة وكما أن الظلام مأوى الذنوب كذلك النفس الضئيلة مأوى المظاهر لانها وسيلة العاجز وحيلة الضعيف ومن انقطعت دون الفضل أسبابه مت الیها بأسباب أوهى من حبال الشمس وهي خدعة يزيفها الناقد بين الفضل الصحيح وذلك الفضل الذي تخلقه المظاهر مثل ما بين العين الباصرة والعين المصنوعة من الزجاج أو مثل ما بين العروس الحسناء وعروس الحلوى التي تصنع في المواسم . أن الدهان الذي تصبغ به العجوز وجهها لا يخفى قبحه كذلك المظاهر لا تخفى حقارة النفس

فاحذر أن يعرف الناس منك رغبتك في الباس نفسك زياً ليس من ازيائها فان ذلك اقرار منك بصغر شأنك وضالة همتك فتصير متهم الفضل محذور القول . انك اذا لم تكن فاضلاً فان عرفانك الفضل في غيرك غاية الفضل واذا كنت فاضلاً فلا تنقص من فضلك بأن تزيده من حلى النفاق والرياء

لو نزّ عن هذى النفوس غطاؤها　　لرأيت أقبح ما رآه الناظر

لتضاءلت نفس التقيّ ودونها   منع الوقار موارد ومصادر
ان النفاق يسر كل رذيلة   شنعاء يبديها الغوي السادر[1]

يا عجباً لقتيل المظاهر . هل أبصر أحد بالعمى أم سمع أحد بالصمم أم صلح أحد بالداء حتى يريد أن يسود بالمظاهر . يا عجباً لمن يعرف أن المظاهر خدعة ثم يجد نفسه لها اهلاً . يا عجبا لمن يفر من النقص الى المظاهر أيفر من النقص الى النقص وهو في الحالة الاولى افضل منه في الثانية اني ما رأيت امة ابتليت بأعظم من المظاهر فانها تميت القلب وتقتل الحياء الوازع عن مواقعة الرذيلة وتلهي عن تطلب الفضل الصحيح ضنا بالسعي وخشية العثار

وان من قتلى المظاهر الفقير الذي يحتذى الغنى في اساليب معيشته والغني الذي يحتذى الفقير في مثل ما يحتذيه الفقير وبين هذا وذاك رجل ينفق في غذاء جسمه ما لا ينفقه في غذاء عقله. وان من المناظر التي يبكي منها الضاحك ان ترى الرجل يمشي مجيلاً بصره في انحاء لباسه كما تجيل الحسناء في الحمام طرفها في انحاء جسدها العاري ثم ينظر في حذائه وهو يكاد يغسل عنه الغبار بدموعه كأنما عرضه فيه فهو يخشى عليه ان يلوث . يمشي ذلك المسكين فرحاً برواء لباسه وهو يكاد يأكل اصبعه من الجوع

أما مثل الفقير المحتذي الغنى فمثل الغراب الذي اراد ان يحتذي الطاووس فاستعار ريشه فكان ذلك داعياً الى سخر الطواويس منه أو مثل الفراش الذي لا يزال يتهافت على الضوء حتى يهلك

ومن قتلى المظاهر الرجل الذي ينصح ابنه فيغريه بالفضيلة لأنها جالبة تقريظ

---

(١) من شعر المؤلف

الناس ولو عرف هذا الرجل ان نصيحته هذه داعية الى التلبس بالمظاهر وتلمس التقريظ حتى من الرذيلة لاشفق على ابنه وقلل من ذكر تقريظ الناس ومثل هذا الرجل آخر يقول لابنه افعل هذا لانه يقربك من رضاي واجتنب هذا فانه يدنيك من غضبي فيحسب الغلام ان الشيء شر لانه يغضب اباه أو خير لانه يرضيه فاذا غفل ابوه او مات وراودت الغلام نفسه ان يأتي شراً لم يعتصم منها

ومن الذين استعبدتهم المظاهر الرجل الذي يعلق بطرف لسانه شيئاً من الحكم السائرة ثم يبتغي المجالس وهو لا يعرف اهلها فيطلق عليهم من حكمه ما ينفخ اوداجه من ثنائهم عليه وانما مثل هذا الطفيلي مثل أم العروس الحسناء اذا كمنت تحت سرير بنتها ليلة الزفاف ولو لم يكن في ذلك التقصي الا انه عدو الحياء لكفى فكيف به وهو دناءة ولؤم

وممن ينتظم في هذا السلك الرجل الذي آتاه الله بسطة في العلم او في المال فأبغض الانسان ولو كان مثل جوناثان سويفت يبغض فرداً ويحب نوعا لرحمناه والبغض مظهر من مظاهر حب الذات وخير البغض ما كان حباً معكوساً وخير المبغضين من ابغض الرذيلة حباً في الفضيلة وفي مثل ما نعني قال العلامة صمويل جونسون اني احب الرجل الذي يجيد البغض وكما ان النحلة لا تصنع الحرير والدودة لا تمج العسل والماء لا يقدح شرراً والنار لا ترشح ماء كذلك ليس من طبع العظيم ان يبغض فانه واجد صلة بينه وبين كل شيء لانه حلقة من حلقات سلسلة الوجود بل هو المنزلة التي يهبط اليها السامي ويعلو اليها الوضيع هو اخو الطفل والغلام واليافع

والوجل والشيخ وهو صاحب التقى والفاجر واللص والورع وهو الذي لا يأنف من ان يحنو على المسيء ويرحم المخطىء

وليس مدعي الفقر في باب المظاهر باحقر من مدعي الغنى ولا مدعي الفضل بشر من مدعي النقص ولا محب الخمول بخير من محب الشهرة وان من قتلى المظاهر من جعل مهنته فتق الحيلة لاجتلاب الشهرة ولو علم ذلك الابله ان الاجراس التي توضع على صدور المعز لا تزيد في البانها لما حسب ان الشهرة جالبة للفضل

وممن يلج هذا الباب باب المظاهر الرجل الذي اذا حدثك ذم نقيصة من النقائص كي يلفتك عما في نفسه منها وانما مثل هذا الاحمق كمثل اخيه الذي يرى في ثوبه قطعة ملوثة فيغسلها في المداد كي تخفى فيكون ذلك داعية لاظهارها كما يكون التصنع في كتم السر داعية لاظهاره

عصور الانتقال

سبيل الانسان في الحياة مثل سبيل الغلام الصغير الى المدرسة تعترضه فيه الهواجس فيحيد عنه الى الحارات ويضيع وقته في اللعب

وكذلك الانسان قد يحيد عن الغرض الذى خلق ليسعى اليه في الحياة ثم يضيع الحياة عبثاً وسواء كان الغرض من الحياة جليلاً أو حقيراً فلا بد للافراد والجماعات أن تشعر في الحياة بغرض تسعى اليه وقد تكون حياة الافراد والجماعات مثل نهر من الماء تعترضه تيارات متضادة من الميول والآراء والمذاهب المختلفة من اجل ذلك يضطرب سطحه ويصعب على الافراد

والجماعات في مثل هذه الحال ان تعيش حياة سعيدة وكما ان الانسان قد يؤدى به سعيه الى طريق مسدود لا منفذ له فيضطر ان يرجع الى طريق آخر كي يصل الى المكان المقصود ، كذلك الانسان في الحياة وكذلك الامم والشعوب .والجماعات قد يؤدي بها سعيها الى طريق مسدود من طرق الحياة فتضطر ان تسلك طريقاً آخر يؤدى بها الى الغاية التي تقصدها من النجاح والقوة

واذا كانت أمة في عصر انتقال وتغير كانت حياتها مثل نهر تعترضه تيارات كثيرة متضادة فحينئذٍ تكون حياتها الاجتماعية والفكرية مضطربة متماوجة فيقع المفكرون من افرادها في حيرة وارتباك وفي مثل هذه الحال يصعب عليهم ان يحكموا حكماً صادقاً على الحقائق كما انه يصعب على من كان في وسط الزحام ان يحكم حكماً صادقاً عما يحدث في ذلك الزحام من الشجار واللطام والخصام فاذا أراد ان يحكم حكماً صادقاً ينبغي له ان يبتعد عن الزحام لكي يراه رؤية تامة صحيحة فنحن نظن ان الحركة الفكرية في حياتنا سريعة ولكنها في الحقيقة ابطأ من السلحفاة فينبغي لكل منا ان يحرك هذا التفكير الحيوى بما يستطيع

تمر العصور والقرون على الامم والجماعات كما تمر الايام والسنون على الافراد ولكن لحوادثها قيوداً تقيد بها تلك الامم والجماعات كما تقيد بها الافراد وان المرء ليحاول ان يفلت من قيود الحوادث الماضية كما يحاول الطائر ان يفلت من حبائل الصياد وكذلك الامم تحاول ان تتخلص من قيود الحوادث الماضية والقرون الغابرة ولكن ذلك لا يكون الا اذا صادفها من

العوامل ما يحرك قواها الكامنة فتستخدم تلك القوى كي تصدع عنها قيود الحوادث الماضية وهذه القوى تختلف مصادرها من أمل أو غضب أو يأس فان لليأس فى بعض الاحايين قوة مثل قوة الامل

ونحن من الامم التي تثقل اعناقها اغلال الحوادث الماضية وقيودها فان القرون الغابرة وما ابقت في حياتنا من الاثر مثل ضعف العزيمة والطيش والتقلب والسأم والجهل وضآلة النفوس والجبن والتوكل الا على عزائمنا والاعتماد الا على انفسنا ، كل ذلك مثل حمل ثقيل لا ننهض به يثقلنا ويكاد يفقدنا بواقي حياتنا فكأن هذه الحياة التي نعالجها نوم مضطرب غير هادىء وكأن حمل الحوادث الماضية وما أبقت من الاثر السيء الكابوس الذى يضغط على صدر النائم ، وليست هذه الحركة التي في حياتنا غير حركة النائم الذى اثقله الكابوس يتقلب ويتلوى من الالم فهل رأيت احداً حسب ذلك التقلب والتلوي نشاطاً وهمة ونهوضاً . نعم ان الكابوس لايزال بالنائم حتى يوقظه وكذلك الامة من الامم في عصر التغير والانتقال تكون كأنها تحلم بالعصور المظلمة السوداء الهائلة التي مرت عليها كما يحلم التعس في نومه بايام البؤس والذل والتعاسة والآلم التي مرت به فيورثه الحلم كابوساً فما يزال يتلوى ويتقلب من ألم الذكرى حتى يوقظه التلوي والتقلب وكذلك الامم ولكن الايام السوداء ايام التعاسة والشقاء تبقى في نفس المرء أثراً تمحوه عوامل الرخاء شيئاً فشيئاً ولكنه لا يمحى كله بل يبقى في النفس شيء منه ما بقيت النفس وكذلك يبقى في الامم ما بقيت الامم أثر من القرون الماضية ولكن العوامل والمنازع والرغائب والاراء الجديدة تجدد قوى الافراد كما

تجدد قوى الامم وتقلل من ذلك الاثر الذي أبقته القرون الماضية والذي يعوق الامم عن منازل الرقي والقوة وهذا الأثر الذي تبقيه القرون الماضية له مصادر كثيره فهو ناتج من مرور عصور مظلمة على امة من الامم بالذل والتعاسة والضعة فان الذل والضعة ينحتان في العزائم ويمحوان الاعتماد على النفس ويورثان النفس ضآلة والذهن جهلا ويمحوان الفضائل الشخصية التي تؤهل الافراد والامم للنجاح في الحياة

وهذا الأثر السيء قد يكون سببه فساد الانظمة القديمة فان الانظمة تفسد الايام والسنون صحتها كما تفسدا لايام صحة المرء وشبابه فينبغي للامم ان تتهيأ لقبول الانظمة والاراء والمنازع والرغائب والآمال الجديدة وان لا تيأس من فساد الانظمة والاراء والرغائب القديمة لان حياة الامم مثل الماء اذا ركد ولم يحركه ويجدده تيار جديد من الماء عطن وفسد ولكن من اين تأتي النفوس الضعيفة تلك العوامل والدوافع التي تدفعها للتعلق بالمنازع والآراء والانظمة الجديدة التى تجدد حياتها ؟

ان النفوس مهما كانت ضعيفة لها أعماق لم يصل اليها باحث ولم يبلغها مفكر وكما ان البحر العميق تنظر اليه فتحسب انه خلو من الحياة والاحياء وهو ملآن بها كذلك النفس تنظر اليها فتحسب انها خالية من عوامل الحياة وهي ملأى بها غير ان للنفس قوى تبقى ساكنة راكدة حتى يحركها محرك من العوامل الاخرى النفسية أو من عوامل هذا الوجود ودوافعه فكما ان الرياح تهيج قوي البحر وامواجه كذلك للحوادث رياح تهيج قوى النفس الا ان بعض الامم مثل بعض الافراد لا تصادف تلك الدوافع التى تهيج ما كمن من

قواها . نعم ان هذه الانظمة والاراء والمنازع الجديدة قد تغير حياة الامة كل التغيير حتى تصير كأنها أمة أخرى ولكن خير للامة ان تحيا حياة ثانية وان تتغير أحوالها من ان تنعدم وتفنى واذا نظرت الى التاريخ وجدت ان تلك الامم التي فسدت انظمتها القديمة ومرت عليها عصور مظلمة بالتعاسة والذل والضعة يأتي عليها عصر تكون فيه بين عوامل التجدد والحياة فلا تخشى من التغير وعوامل المحافظة على القديم فتجبن عن الجديد وتحجم عن ان تجدد حياتها باقتباس المنازع والرغائب والاراء الجديدة فاما أن تحيا حياة ثانية واما ان تنعدم وتفنى في شخصية غيرها من الامم

على ظهر البحر

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها عن تقل الرجاء[1]

وتمشت على الاذى مشية الثمل من نشوة الرجاء لا من نشوة الصهباء

فكأنها وهي تناهض البحر والبحر يناجزها طالب يناهض صعاب الامور او كأنها الزاهد في نفوره ووخشته وسكونه وعزلته او كأنها الامل اذا عبّ اليأس وطغى او كأنها الفرصات العذاب تحوطها الخيبة والهزيمة او كأنها السعي بالغاً بالمرء رغيبته او كأنها المحب هائماً على وجهه سالكاً طريقاً عذراء او كأنها الفكر في سفرته فان للفكر سفرة مثل سفرة الفلك

تمشت السفينة فتمشت في الصدور القلوب وتحركت لمشيتها الذكرى في

(١) من شعر شوقي

الخاطر الحرب وجعلنا نرمي المرفأ بلحظات كلها حسرات وزفرات كلها
آيات بينات تنم عن ود صحيح وحب رجيح تلك الزفرات مفاتيح القلوب
وتلك اللحظات حبات القلوب وكأني وانا على ظهرها قارئ طوى كتاباً
وفتح كتاباً وبين هذا وذاك مجال للتفكير فيما قرأ قبل استئناف القراءة فجعلت
انشر صحف ما مضى من حياتي فكأني مفيق من حلم لذيذ ساءه ان مضى وسره
ان لا يزال يذكره فينعم بالذكرى ويشقى بها لان فيها رجعة النعيم المسلوب وحسرة
على فواته وبعد ان خلبنا من الذكرى سلوتها ونعيمها بعثنا بالفكر واتخذنا
منه دليلا على ما سيكون ولو لحظت حياتك بنظر صادق علمت ان ما كان وما هو
كائن وما سيكون مثل الحب والزرع والمحصود ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة
ينثر الزارع الحب فيخرج الزرع خروج الجنين من بطن امه فاذا طاب عاد حصيداً

أيها البحر ليتني موجة من أمواجك اهيم كما أشاء غير مسجون الفضيلة
والفؤاد واليد واللسان اني أرى الموجة تتسرب في خلال الموجة والريح تعانق
الريح والضياء يغازل الماء والسماء تلحظ البحر لحظات تسكن في قلبه كأنها
لحظات الحبيب في خاطر المحب فترى في السماء نجوماً وفي البحر نجوماً . أيها
البحر قد علمتني معنى الحب والبغض والغضب أيها البحر أنا منك وانت مني
فانك مشبوب العواطف وأنا مشبوبها فكن علي رفيقاً كما يرفق القرين بالقرين
اني لانظر اليك فأرى لكل هائجة جناحاتهم به الى السماء وكأن الامواج
جيشا وغى هازم ومنهزم وكأنا من البحر على ظهر فرس جموح وقد خانتنا
اللجم فصارت تطغى وتدفع بنا كل مدفع

ثم ارتفعت الشمس وكشف الظلام عن منظر بهج كانه قطعة من

الفردوس فجعلنا نتسأل أي ملك كريم حدا بنا الى هذا النعيم رأينا وما اروع ما رأينا حسنات وجنات ومنظراً هو في العين بهجة وفي القلب شجو . هنا يهب المرء نفسه للماء والهواء. هنا يهبط الشعر وتنزل الحكمة هنا تولد النغمات وتحيا الاشجان وتجري العبرات ويجهد القلب بالخفقان . ايتها السحب ما اهيمني الى نواحيك وأنت ايتها الامواج ما اشوقني الى حياة مثل حياتك

هنا يهبط الفكر والخشوع وتعظم النفس حتى تصير كالسماء اعاليها وكالبحر اسافلها وكالافق غايتها والافق كلما قاربته باعدك وكذلك غاية النفس

هنا يحس الرائي كأنه يحمل في نفسه بحراً من الآمال والأشجان وكأن البحر قلب امواجه نبضاته ورياحه خطراته او كأنه مخلوق كبير تارة يروعك بزئيره وتارة يشجيك بخريره وخرير البحر ذكرى سنيه الماضية فكأن خريره هاتف يهتف في اعماق نفسه وكأن المرء اذا امتطى البحر امتطى منه مطية الخلد فيتطلع ببصره ويشرئب الى سفينة تحمل اليه آماله واطماعه من وراء الغيب فالبحر كالنفس فان للبحر امواجاً وللنفس اشجان والبحر كالدهر فان للدهر امواجاً مثل امواج البحر والبحر كالحياة فان البحر يفزع كما تفزع الحياة ولكن قلب المرء يحس لذة فيما يهيج في نفسه الخشوع والفزع من مظاهر الجلال سواء جلال البحر وجلال الحياة

وصف البحر

تناءت بكَ الامواج وهيَ نوافر[١] ... وجاءت بك الامواج وهي نوائر
كأن بها عجز المشيب اذا انثنت ... وعزم الشباب الغرّ وهيَ بوادر[٢]

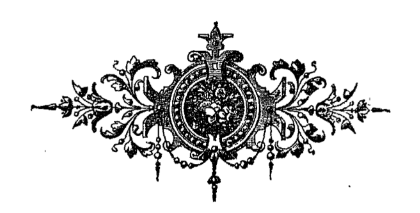
(١) تناءت بعدت (٢) أي ان الامواج اذا ابتدرت الشاطيء كان لها بطش الشباب

فمن نومة الظل البطيء مسيره | وثب وثبة اللهفان حين يكاشر [1]
فيارب حلم خامل البطش هادئ | ضمنت وجهل شره متطاير
كأن لنا من لج مائك واعظاً | بليغاً له مما أثرت زواجر
لمحتك والامواج في وثباتها | عساكر حرب قد تلتها عساكر
فبينا يريق الضوء فوقك ماءه | وتجري عليك الريح وهي خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم | يرجعه لحن من الماء مائر [2]
ويسمعك الملاح من شجو قلبه | أحاديث قد تاقت لهن الحرائر [3]
إذ الجو جهم والرياح كتائب | واذ انت مقبوح السريرة غادر [4]
ورب سفين يقرع النجم مجدها | تقاذفها مستوفز اللج هامر
يروعها في كل هوجاء موعد | ويسعى لها قبر من الماء سائر
فليس الغمام الغمر إلا رياحها | وما المرسلات الموج إلا الهوامر [5]
وما ذلك اللج الذي في سمائها | بأهدأ من لج نمته الزواخر [6]
إذا ذكر الملاح زوجاً وصبية | طغى شجن في مرجل الصدر فائر [7]
ينفس عنه بالغناء وكفه | تقيم على جفن به الدمع حائر
وتذهل عن مهد الوليد فتاته | اذا ما رمتها بالوعيد الزماجر [8]

وعزمه وإذا رجعت عنه كان بها عجز المشيب وضعفه (١) اللهفان هو الغضبان والمكاشرة المشاجرة والمعاركة (٢) مائر اي سائل. (٣) تاق اشتاق والحرائر النساء المحجبات (٤) كتائب جيوش (٥) اي ان الغمام في صولته مثل الرياح والرياح مثل الامواج (٦) نمته نسبته الى نفسها ٧ المرجل القدر توضع على النار (٨) الزماجر جمع زمجرة أي صوت الرياح والامواج الذي يشبه زمجرة الاسد

وما هي الا دولة طار شأنها   فأوحت اليها بالقضاء المقادر
وما هيَ الا صولة ثمت انجلت   واكبر غرقاها المساعي البوائر(١)

(١) البوائر من بار يبور اذا تلف   هذه القصيدة من الجزء الثاني من ديوان المؤلف





مؤلفات عبد الرحمن شكري

« ديوان عبد الرحمن شكري »

الجزء الاول   ضوء الفجر

« الثاني   لآلىء الافكار

« الثالث   أناشيد الصبا

« الرابع   زهر الربيع

« الخامس   الخطرات

كتاب   الاعترافات

كتاب   الثمرات

كتاب   حديث ابليس

(تحت الطبع)

كتاب   رسائل الحب

كتاب   مظاهر القوة في الحياة

كتاب   أدب الشعر

